كتاب

أربعة يهتدون إلى الله



كتاب

اربعة ..

يهتدون الى الله .

بقلم

سيد اسماعيل محمد

شهر مايو
١٩٣٣ م — ١٣٥٢ هـ

مطبعة عطايا بمنية القمح

الاهداء

نور على نور ..

هو الله ..

« بنوره اهتديت واليه أرفع هذا الكتاب »

سيد اسماعيل محمد



مقدمة

جميل جدا أن يصدر الكتاب فى أبدع ثوب : طباعة وتجليدا !

واجمل منه أن يباع الكتاب بثمن أقل من أن يصيب من الجيوب مقتلا فيشتريه غالبية المثقفين الكرام !

والأجمل من هذا جميعا أن يقرأ الكتاب فيعود بأكبر الفائدة على موضوعه أولا ثم على قارئه ثانيا ثم ببعض ما يعوض المؤلف جهده ووقته وماله ثالثا ! فليس أشق فى عالم الفكر من وضع كتاب وإصداره خصوصا فى مصر حيث لا ناشر . ومن استسهل الأمر أو ظن أنى أبالغ فيه فنصيحتى له هى أن يجرب ، سيما ولست الآن فى معرض تعداد الصعوبات الجمة التى احاطت بهذا الكتاب وغيره ، بل اكتفى بحمد الله وشكره على أن وفقنى بأى حال الى اصداره . وبعد ذلك الحمد والشكر لم يبق الا أن أقول كلمة تتعلق بموضوع الكتاب والدوافع الى ابرازه

فقد صدر فى ديسمبر سنة ١٩٣٢ كتاب للعالم الانجليزى الكبير « برنارد شو » سماه « مخاطرات الفتاة الزنجيه فى بحثها عن الله » وطبع هذا الكتاب حتى شهر فبراير سنة ١٩٢٣ تسع طبعات دل بها على مقدار ما للمؤلفه من مكانة بين زعماء الفكر كما دل على ما للكتاب من

قيمة في ذاته وفى موضوعه . ولم يكتف الكتاب بكثرة طبعاته وكثرة قرائه بل أثار ضجة فى عالم الفكر هنـاك كان من مظاهرها أن أصدر « شارلس هربرت ماكسويل » وهو من قادة الفكر هناك أيضا — كتابه الذى سماه « مخاطرات الفتاة البيضاء فى بحثها عن الله » توخى ماكسويل فيه أن يرد على كتاب شو ردا لم يخرج عن كونه تصحيحا لبعض المسائل الدينيه كما يفهمها رجال الكتب المقدسة عندهم . ولم يعدم ماكسويل انصارا قرظوا كتابه فى الكتاب نفسه . ولا مجلات أدبيه ناصرته ودعت الناس بحماس الى قراءة كتابه

وانك لترى أن كلا من الكتابين صدر فى أسلوب قصة شيقة بلغة سهلة لاتكد الذهن ، فكانا دليلين على اتجاه حركة الفكر هناك ، ومظهرين من مظاهر التنافس الشديد بين العلم والدين فى البلاد المتمدينة . ولا غرو فأن النشاط العقلى فى هذه البلاد يتجه الآن الى ناحيتين إن لم تكونا متضادتين فهما على الأقل أقرب الى التطاحن وليس أدل على تلك الحالة من قول شو نفسه فى كلمته عن كتابه الأخير قال « نحن الآن فى أزمة (فكريه) يحتفظ فيها فريق من الناس بالكتاب المقدس محجوبا بين طيات السحب باسم الدين ، حين يحاول الفريق الآخر أن يتخلص كلية من الكتاب المقدس باسم العلم »

وما كان لى أن أتعرض لتلك الحالة ولا لهذين الكتابين لولا أن هذا جميعا كان السبب المباشر الذى حدا بى الى وضع هذا الكتاب

فقد استلفت نظرى منذ زمن بعيد أنه مامن مجلة أدبية انجليزية محترمة شهرية كانت أو أسبوعية إلا وضمت بين دفتيها مقالا دينيا أو مقالا علميا يتعرض للاديان أو قصة تناصر أحد الرائيين أو نقدا أو عرضا لكتاب فى أحد الرائيين وهكذا نشطت الحركة الأدبية فى أوروبا وغيرها من بلاد المدنية الى تغذية كل فريق على حدة : يتنافس كل فريق فى طرق إبراز افكاره وعقائده محاولا هدم الفريق الآخر بالأساليب التى يرونها أدخل على النفس وأقرب الى الذهن لتعم الفائدة أو تكاد ، فلم يعدم الجميع من القصص الصغيرة سلاحا ومن القصص الطويلة عونا ، ومن الروايات المسرحية عضدا ، ومن الشعر قوة .

والحق انه كان لابد من هذه المنافسة الشديدة وهذا النشاط الجبار وسط زوبعة المدنية الجارفة . وكان الدين أحوج مايكون الى قوى متضافرة تنهض به ، والى عقول كبيرة تناصره ، لتخرج به من المعمعة سالما أو لتنقذه من التهلكة أو الامتهان . وسرعان ما تنبهت بلاد المدنية الى هذا كله منذ قرنين أو أكثر فنهض رجال الدين يعملون وينشطون وكانت اكبر مظاهر عملهم ونشاطهم جمعيات التبشير الواسعة النطاق التى نسمع عنها كل يوم والتى تزداد سطوة وقوة كل يوم ، وهى تحاول إقامة الدين بكل الطرق الممكنة تبذل فى ذلك المال والجهد والوقت بسخاء غريب . ولم تكن حاجة الدين الى كل تلك الجهود تبذل ، والى كل تلك الأموال تصرف ، لم تكن هذه الحاجة عبثا ولا لهوا بل هى

ألزم للإنسان فى هذا الوقت الفاجر منه فى أى وقت آخر فهى إذن حاجة ماسة يستلزمها وجود المدنيات على اختلاف انواعها وأشكالها لأنه ندر أن تعنى مدنية من المدنيات بقواعد خلقية سليمة تنهل الروح من مناهلها وتكتسب النفس من أسوارها مناعة ضد سائر الرذائل. ولنا من التاريخ أمثلة كثيرة ناطقة تثبت هذا الكلام.

ولما بزغت شمس مدنيتنا الحديثة التى قامت على الحرية الشخصية وحقوق الفرد، توقع الناس أن تكون قد تعلمت مما سبقها من المدنيات وأسباب انحلالها. لكن سرعان ما جرفنا تيارها الذى سيطرت عليه كل قوات الهدم التى ترى الأمور خلال منظار من الشهوات البهيمية المطلقة والمتع النفسية الماجنة فهى كما قال الاستاذ المازنى فى كتابه « ابراهيم الكاتب » أن ليس للمدنية ارتباط وثيق بالانسانية والمروءة، كما ليست لها علاقة قوية بحقوق الفرد فى ظل الديمقراطية بالنظر الى استخدامها الجموع المدربة والجماهير المنظمة فى الحرب السياسية والعملية.. كما لا نرى علاقة حقة للمدنية بالفضائل الجنسية. إذ أن جو المدنية أصلح ما يكون للرذائل الجنسية.

فليس غريبا إذن أن يعنى القوم بشئون دينهم لأن الناس فى أجواء المدنيات أحوج ما يكونون الى الدين: الى الرادع المعنوى المسيطر: الى المناعة الدينيه (وهى مناعة خلقية عليا) يدفعون بها شرور المدنية وآثامها. ولما رأيت هذا النشاط الذهنى الدينى فى أوربا

وغيرها يمشي جنبا الى جنب مع النشاط الذهني العلمي وتبدو آثاره في مؤلفاتهم وبعض ابحاثهم على اختلافها حولت نظري شطر مصر التي بدأت تنهض ولعلها قطعت نحو النهوض شوطا كبيرا ولكنه يكلل بأسف شوط كبير في التقليد الاعمى لا يلبس الا ما يرضى غرائزه. واذا صوت الدين في آثارنا الأدبية خافت ضئيل لا يكاد يسمع إلا من ثلاثة أو أربعة فضلاء استطاعوا بآرائهم الحديثة أن يحببوا الناس في قراءة فصولهم الممتعة بعد أن نفر متعلمونا من الكتابات الدينية نظرا لتمسك غالبية الفقهاء بالسير على النمط القديم الممل في تواليفهم، ونظرا لأشياء أخرى لا محل لذكرها.

وانك لترى معي أن حاجتنا الآن ماسة الى الأسس الأخلاقية الدينية، وأن هذه الأسس القويمة لابد أن يعرفها الناس عن طريق سهل محبب. لذا كان لابد للأدب أن يساهم في حركة النشاط الديني كما كان الشره الى تغذية الدين من ناحية الأدب عظيما. وكان من حسن حظي أن وجدت صديقا لي شابا مثقفا يرى ما أراه فكنا نتداول فيما يجب اتخاذه ففكرنا كثيرا في وضع قصة أو رواية تمثيلية وقبلت فعلا أن أجعل دائرتي تشمل القصة — صغيرها وكبيرها — أضعها كلما سنحت الفرصة، حين وعدني هو أن يقوم بوضع الروايات التمثيلية وأرجح الظن أنه جاد في ذلك وفقه الله.

وسنحت الفرصة أمامي حين كنت أزور إحدى المكتبات

للافرنجية فى اوائل شهر أبريل فوقع نظرى على كتاب برنارد شو هذا ، وفكرت فى وضع كتاب هو قصة طويلة ردا على كتابه على أن أترجم كتابه وأجمع الكتابين فى كتاب واحد . وفعلا بدأت لكن شيئا جديداً حدث بعد بضعة أيام لما رأيت كتاب ما كسويل ردا على برنارد شو : ولما فكرت ثانيا وجدت أنى لو أصدرت الكتب الثلاثة معا فى مجلد واحد لكان تحديا للازمة ! ولكانت مسئولية ترجمة كتابين ونشرهما : أمام الامتيازات الأجنبية وحقوق المؤلفين !

وأخيرا رأيت أن أجعل من كتاب شو هيكلا لكتابى وأدخل الأحاديث التى تلزمنى للرد عليها فى قصتى دون أن يختل المعنى أو يضطرب سير القصة مع تمييز هذه الأحاديث بعلامات خاصة يستدل بها على أنها مترجمة من كتاب شو . فنخرج بذلك بفائدتين هامتين أولاهما أن جمعت فائدة الكتابين فى مجلد واحد دون الاخلال بأحدهما ، وثانيتهما أن لم تعد هناك حاجة الى شراء كتاب شو إذ قد يكون بين القراء من لا يعرف الأنجليزية . وهكذا ينال موضوع الكتاب من وراء هذا أكبر الرواج ، فيأتى بالفائدة المرجوة كما يكون مظهرا ولو بسيطا من مظاهر المقاطعة !

بقى أن أقول كلمة عن طبيعة القصة فانى عمدت الى جعل بطلتها ريفية ولى كل العذر فى ذلك إذ لم اجد بين فتياتنا المتعلمات بالقاهرة من تعنى كثيرا بشئون دينها ومعذرة أيها الاتحاد النسائى ! كما عمدت

فى اكثر القصة الى الحوار أحطته بستار أدبى شفاف كذلك عمدت الى الخيال المطلق فى بعض الأجزاء يكون الخيال فيها فترات متقطعة لراحة الفكر ، من عناء المناقشات الذهنيه وزدت أن توخيت الحقيقة فى وصف جزء من ريف مصر وصحرائها ، لعلى أحببهما الى أعيان الصعيد فلا يهربون من مواطن أرزاقهم الى القاهرة الخليعة ! كل هذا وأكثر منه تضمنه ورق جيد ، وطباعة نظيفة متقنة ، وتجليد أظن أنه لم يسبقنا اليه كتاب فى مصر بمثل هذا الثمن .

وهاهو الكتاب بين يديك حكما بينى وبينك فان ناصرنى عفوت عن خصمى ، وإن غدر بى لم أقبل حكمه لأنه جماد . ومتى كان الجماد قاضيا فى يوم من الايام ؟ ولئن ضحكت على هذا الخداع فلا تسرف ولئن اتهمتنى بالسخف فرفقا ! فليس أحب الىّ من ارضاء نفسى أولا — إن لم يصب هذا الارضاء بعضهم بسوء — ثم إرضاء القراء أجمعين لأنهم ضحوا على الأقل بستة قروش مأزومة هى كثيرة بالنسبة لهم ولكنها لا تكاد تغطى المصاريف بالنسبة لى

وفى النهاية أحمد الله كثيرا كما أرجو ان اكون عند حسن ظن قرائى بى هدانا الله الى سواء القصد ؟

سيد اسماعيل محمد

٦ مايو سنة ١٩٢٣

مصادر الكتاب

(١) القرآن الكريم

(٢) تفسير الخازن للقرآن

(٣) تفسير النسفي للقرآن

(٤) كتاب « مخاطرات الزنجية » لبرنارد شو

(٥) كتاب « مخاطرات البيضاء » لماكسويل

(٦) دائرة المعارف البريطانية

(٧) كتاب « أول الأشياء وآخرها » لويلز

✡ ✡ ✡

فتاتنا الريفية هذه صورة مجسمة من الأنوثة المحتشمة . عصبت رأسها بمنديل كبير حريرى مخطط بالأبيض والأسود ، فلم يظهر من شعرها سوى خصلة سوداء مموجه تدلت على جبهتها كما تدلت على أذنيها خصلتان من شعرها القاتم حجبتا معظم الأذنين . واجمل ما فى وجهها عيناها — ولو أن بقية تقاطيعه جميلة متناسقة التركيب — وترى بريقا قويا ينبعث من العينين السوداوين ويخترق بسهامه النفوس المستكينة فى الصدور يجعلها تعلو وتهبط تتردد كأنها فى مجال مغناطيسى قوى . هذان العينان بما احتاطهما من دكنة كثيفة فى الرموش ولا تكاد تلمحها حول المحاجر ، . . . ينبئانك عن ذكاء مفرط وطهر مفرط حتى ليخيل اليك انهما أحاطا بكل ماعرفه الانسان من علم وفن وأدب .

وقد زانت وجه ريفيتنا حمرة خفيفة مزجت ببياضه الناصع هى من أثر لفحة الشمس ، فكأنها دائمة الخجل . هذا كما ازدان وجهها ايضا بابتسامة طبيعية خفيفة لا تفارقه وقد اكسبته حياة وبشرا

وإيناسا . وكنت تلمح فى ملابسها ذوقا عاليا إذ ارتدت ثوبا أزرقا فضفاضا من قماش ناعم رخى ، طوقته عند الخصر بشريط بنفسجى عريض ، فجمع الثوب بين سذاجة ملابس الريف وبساطة الذوق الحديث . وبدت صاحبته مديدة القوام ناهدة الصدر غير أن الرائى لايلمح جمال تكوينها إلا من مشيتها الخاطرة الحلوة خلال هذا الثوب الفضفاض : تلك المشية التى امتازت بها قرويات مصر يحملن جرر الماء فوق رءوسهن يتهادين بها وسط الحقول اليانعة الخضرة ، التى تتخللها القناوات كالشرايين تحمل اليها الحياة من القلب الاكبر وهو النيل الجليل . وليس غير تلك المشية الجمة الحلاوة دليلا يهمس فى أذنك برشاقة جسوم الفلاحات . لأن ملابسهن واسعة طويلة زرقاء غير شفافة وقد أبت ريفيتنا الا أن تضع فوق رأسها طرحة سوداء نصف شفافة تدلت على كتفيها تشبها باخواتها الريفيات .

ولعل السر فى اختيارهن اللون الأزرق لباسا ، أن اتخذنه رمزا لتلك القبة الزرقاء التى يعملن تحتها ، أو لعلهن قد كشفن ان العين لاتتقذى اذا ما اطالت النظر فيه بل هى على العكس تستريح فتشمل النفس براحتها . وما دامت النفس قد استراحت واطمأنت فليس هناك

سوى الاخلاص يغمرها ، وليس هناك سوى محبة الخير توجهها ، وليس هناك سوى النقاء والوفاء يهديانها سبيل الرشاد . وكأنى بك تتساءل

« لقد سألت كثيرا من الفلاحات عن سر اختيارهن هذا اللون فلم تستطع احداهن الاجابة الا القليلات قلن ان هذا اللون كفيل بأن لا تظهر فيه الأوساخ والاغبرة بسرعة فهو لعملنا المحتك بالاتربة خير واق لنا ولفقرنا » ان قلت هذا فقد صدقت ولكنى أحيلك على ريفيتنا التى تجيبك بما قلت وبأكثر منه تفصيلا تقرن الدليل بالعلم وتشهد التاريخ مصداقا للقول

ولا غرابة فهذه الفتاة على قدر وافر من العلوم : نهلت من غربيها الكثير فى المدارس الانجليزية بالقاهرة ومن كثرة اطلاعها على آداب الغرب وفلسفته ، كما نهلت من شرقيها فى الدين والآداب القديمة والحديثة عن طريق أبيها الذى كان فى يوم ما أشهر أساتذة الدين بالأزهر ، وكذلك من جم اطلاعها على كتب الآداب والفلسفة الاسلامية ومختلف التصانيف المفيدة

كان أبوها من أعيان الصعيد وقد أكسبه احتكاكه بالمدن ذوقا

يتمشى مع المدنية الحديثة فى فضائلها ، حين كان يردعه الدين والعقل عن مفاسدها . وحيث عمل بالأزهر وكانت فتاته صبية أرسلها الى مدرسة انجليزية محترمة حين كان يزودها هو بالدين وعلوم العرب وعلوم مصر الحديثة لتجمع بين الثقافتين ولتهتدى بالنورين وكانت الفتاة فطرية الذكاء ، فطرية الأيمان شغوفة بالتحصيل والمعرفة عاشت بالقاهرة حتى بلغت سنتها العشرين وكانت تمضى اجازات الصيف من كل هذه السنين مع أبيها فى مسقط رأسهم وموطن املاكهم بمديرية الفيوم . فلما اتفق أنْ أحيل أبوها إلى المعاش فىالسنة التىأتمت فيها دروسها العالية خيرها أبوها بين أن تصحبه إلى عزبتهم بالفيوم أو تبقى مع أخيها الدكتور بالقاهرة . وهنا رأى من أبنته ما لم يكن يتوقع فقد أجابته قائلة :

« أبت . لقد ربيتنى فأحسنت وأعطيتنى من الحرية ما لواعطيته فتاة غيرى لأتبعت هواها وضلت رشدها بين مفاسد المدنية الحديثة. ولكنى والحمدُ لله صنت نفسى عن الهوى وشهواتى عن الجموح، وتخذت من إرشاداتك وميولى الفطرية هديا لعقلى إلى الرشاد . وما كنت بالتى تبهرها أضواء المدينة الخلابة ، ولا كنت بالتى تخدع

بالمظاهر الخلابة الفاتكة . . بل اختطت لنفسي طريقا بين مروجها وخيوطها الصائدة : طريقا سويا لا يميل ولا ينحدر بفضل ما زودتني به من دين أساسه العقل والتسليم ، ومعرفة أساسها تجاربك المحنكة وخبرتك الطويلة . وبعد فلا تدهش يا أبت إن أنا فضلت أن أصطحبك إلى قريتنا الهادئة حيث وددت من زمن بعيد أن أحيا حياة الريفيات الساذجات خالصة إلى الله مخلصة له بعيدة عن كل تلك الشرور والآثام والمغريات التي يسمونها مدنية »

فقاطعها أبوها يمتحن عزيمتها « ولكنك لا تزالين فتاة ولم تحظ من دنيا شبابك لا بالقليل ولا بالكثير مما يحظى به من هن في سنك بالقاهرة . . ويخيل لي أنك لم تستفيدي شيئا من ثقافة الأنجليز . . »

قالت تتلطف مع أبيها « كلا يا أبت فقد استفدت كل شيء . وكان خلاصة ما استفدت أن أبعد عن مدنية المادة الحقيرة ما استطعت ، وإلا فكيف تتوقع ان أهوى بين أحضان مدنية لا أثر فيها لتربية الروح وتغذية النفس ؟ إنما هي مدنية الآلات والمادة . مدنية الشهوات والمجون الجنوني يغذيها أدبها الفج وفلسفتها السقيمة من نتاج العقول المريضة . وكيف تتوقع هذا مني والبشر مدفوعون إلى هاوية سحيقة وقد أفلت منهم زمام انفسهم وعقل عقولهم ، يسيرون على غير

هدى لاسطوة لعقولهم عليهم ، بل هم لا يسيرون إلا لأنهم مدفوعون إلى السير فلا بد أن يسيروا كيفما كان ما داموا أحياء . . وقد تحكمت فيهم شهواتهم المعتلة إلى حد أنهم أصبحوا لا يحسون هذا التحكم ، بل ارتضوا الحياة الغريزية عقلا ورشادا . ولست أريد أن تظنني لا أرى في المدينة الحديثة نفعا بل هناك الكثير . ولكن ظواهر هذا الكثير بكل أسف ضلال ؛ والضلال أقدر على خدع النفوس واستهوائها . »

قال الوالد « بوركت يابنيتي من فتاة جريئة حكيمة . وكفى الآن ماقلت فسيجزيني الله عن تربيتك أحسن جزاء . »

***

وكان اليوم من أيام الربيع المزدهر . وكان الصباح باكرا بساما منتعشا ، طارت عصافيره في كل فضاء ترسل من مناقيرها أعذب الموسيقى المختلطة يحملها ندى الفجر ، ويدفع بها الى جميع النواحي كأنه يريد أن يسمعها لجميع الكائنات : ظاهرها وخفيها . وكنت إذا اخترقت ببصرك الحقل اليانع أمامك إلى حيث الترعة الساذجة الجمال ، وقع بصرك على أشباح تتشح بالأزرق والأسود يحملن أشياء فوق رءوسهن : هن الريفيات يحملن جررهن يملأنها من ماء بحر يوسف

العذب ؛ هذه منتصبة حاملة جرتها فى انتظار زميلة لها ، وتلك تطلب من رفيقة لها المساعدة كى ترتفع جرتها إلى رأسها ، وبالجملة فكل منهن فى شغلها نشيطة باسمة بل ضاحكة تغنى أو ترسل الدعابات عفوا . وكنت تراهن كلهن صديقات أو أهلا صفت علاقاتهن صفاء النسيم العليل ، وتضافرت أرواحهن تسبح فى صعيد واحد من التفكير وتحيط بجدول واحدمن المعرفة . لاتنافس إحداهن أختها إلا فى عمل صالح ، ولا تفخر على زميلاتها إلا فى ما ينفع : كأن تتباها بأن أنجزت عملها المنزلى فى وقت قصير دقائق معدودة ؛ ملأت فيها الماء وحلبت الجاموسة وأعدت إفطار زوجها . أو تزهو بأنها أخرجت اليوم زبدا أو جبنا لا مثيل لهما وسوف يذقنه ليحكمن على صحة كلامها .

ولقد يأخذك العجب أن أنت دققت النظر فوجدت ريفيتنا المثقفة واقفة بينهن وقد كشفت عن ساعد هو قطعة مخروطة من العاج زانته الحياة دما يجرى فيه ويفيض عليه حمرته . ولم تكن الريفية لتقصد هذا الكشف لولا إنها رفعت ذراعها تسندبه الجرة على رأسها ـ لأنها لم تكن تتقن حمل الجرة دون سندها ـ فانحسر كمها الواسع إلى ما تحت المرفق نتيجة لتلك الحركة . وبينما هى تمشى مع رفيقاتها قاصدات

دورهن ، توقفت الرفيقات يشرن ويتصاحين و يضحكن و يستغربن . وسرعان ما التفتت إلى ما يشرن عليه ، فرأت ثلاثة من الناس ، بجرد وجودهم مع بعض مما يثير الضحك . فقد كانوا أجنبيا وأجنبية وزنجية شبه عارية . أسرعت الزميلات خجلات يضطربن فى دعابة محببة قاصدات طريقهن حين وقفت الريفية تنظر أمر هؤلاء القوم .

وما كان أشد دهشتهم حين بدأتهم تحية الصباح بالأنجليزية ، وقد استدلت من هيأة الرجل والبيضاء أنهما انجليزيان ، فردوا التحية ساخرين ظنا منهم أن ريفيتنا لا تفقه من الأنجليزية سوى كلمات التحية . وراحوا يسخرون من ريفية تتطفل على اللغة لكنها ردت عليهم سخرهم بألذع منه ، وأفهمتهم بلسان انجليزى طليق مقدار علمها وسبب نزوحها إلى الريف وكيف أنها خالفت تقاليد عائلات الصعيد الكبيرة التى تحرم على نسائها إتيان أعمال صغار الفلاحات من ملء أو حلب أو أستخراج مصنوعات الألبان . فهى قد أرادت أن تعيش فلاحة بسيطة وكان لها ما أرادت . كل هذا أفهمتهم إياه بلسان إنجليزى سليم فى شىء من القذع الخفى لصغر عقولهم التى لا تستطيع ان تتصور ريفية تتكلم الأنجليزية .

كان الرجل الأجنبي كاتبا روائيا ارلنديا يرتدى الملابس الأفرنجية إلا السترة وله ذقن وشعر وحاجبان وشارب كلهم بيض . وكانت البيضاء فتاة عليها ملابس الرحلات وبيدها عصى خيزرانية رفيعة لف طرفاها بالجلد . أما الزنجية فكانت مقبولة الملامح لها جلد أسود لامع كحرير « الساتان » وقد أرتدت سترة الكاتب وسروال له قد أستغنى عنه ـ وهى لم تعتد ارتداء الملابس بل كانت تكرهها جدا ، لكنها اضطرت إلى تلك الملابس المضحكة عندما دخلت مصر حيث كان فرضا عليها أن تخفى بالملابس أقبح مظاهر الأنسان .

وبعد أخذ ورد قصيرين دعتهم ريفيتنا إلى منزلها ولما قابلت أباها فى صحن البيت آفلا من صلاة الفجر ، بادرها القول « ألا تزالين يا بنيتى تجهدين نفسك بملء الجرر التى لسنا فى حاجة اليها ؟ » فقالت تراوغه « جئتك يا أبت بضيوف قد تستغرب أحوالهم لأن مجرد اجتماعهم أمر مضحك . وهاهم زنجية وبيضاء وأرلندى » وأشارت عليهم فسلم عليهم الأب ودخلوا جميعا إلى المضيفة . وتولى الكاتب تقديم نفسه وصاحبتاه إليها قائلا « لقد نزحت إلى أدغال افريقيا مع تلك البيضاء نبحث عن الله وكان لنا فى هذا البحث مخاطرات ونوادر بعضها سخيف

وبعضها ظريف ، إلى أن انتهت فتاتى إلى معرفته حسب ما أرتأت وصورت لها أوهامها . وفى النهاية قابلنا تلك الزنجية فى حقل فيلسوف هناك وكانت هى الأخرى . تبحث عن الله على غير هدى ، إلى أن أقنعها الفيلسوف أن لا فائدة من ذلك وأنه أجدر بها أن تعبده من بعيد لأنها أن تعرضت له فسوف يسحقها بقدمه كما يسحق الأنسان الحشرات دون قصد منه . ومن يدريها أنها ستحب الله إن وجدته ولن تخر مصعوقة من هوله وبطشه ! ؟ وهكذا أقنعها الفيلسوف ، وكذلك رحبت برأيه ، الا أن هذه البيضاء أبت الا أن تظل فى أوهامها غارقة وعلى هذا الاتفاق فى الرأى بينى وبين الزنجية قبلت ان أتزوجها ولأنى أيضا مغرم بمخالفة الناس فقد قالوا فى الامثال (خالف تعرف) حتى أن لى ولع شديد بالوقوف على رأسى رافعا رجلى فى الهواء ! (وهنا انقلب واقفا على أم رأسه يهز رجليه فى الهواء وقال) ولا تندهشوا فانى أعتقد أن جميع الناس مخطئون حين يقفون على أرجلهم ، وان طريقتى فى الوقوف هى الطريقة المثلى علاوة على أنها تدر على الربح الكثير من المتفرجين ..! »

فقالت الريفية ساخرة « ولعلك تستنشق الهواء من فتحات بنطلونك

بدلا من فتحات أنفك كما يفعل جميع البشر »

قال « قد يجوز هذا . ولكن المفهوم على أى الحالات أنى أحب مخالفة الناس ومن الغريب أن كثيرا منهم يتخذون هذه المخالفة شريعة لهم فأربح من وراء ذلك الكثير »

وهنا قال الأب مستغربا « ولكن ما الذى أتى بكم إلى هنا ؟ »

فأجابته البيضاء « لقد كان لى مع هذا الكاتب نوادر جمة فى بحثنا عن الله ، وكان كلما أعطانى فكرة عنه اتضح لى عكسها حتى انتهينا من مخاطراتنا الى بيت الفيلسوف حيث تزوج مرشدى من تلك الزنجية التى اتفق رأيه مع رأيها فى بحثهما . فما زلت بالزنجية أحاول إقناعها برأيى حتى بدأت تشك فيما تعتقد . ولكنها كانت مترددة بينى وبينه ، فلم تكن دائما على رأيى كما لم تكن دائما على رأيه ، ومن هنا بدأت حياتنا تتنغص : نتناجز ونتشاجر ونحتد ونتخاصم ، ففكرنا أخيرا فى وضع حد لهذا النكد الذى اعترانا ، واتفقنا على أن ننزل بأقرب بلد متمدين ، حيث نحتكم هناك الى أحد ، أو نجد من يغلب رأى أحدنا على الآخرين . ونزحنا الى مصر حتى صادفنا ابنتك حين كنا عازمين على السفر الى القاهرة »

فقالت الريفيه « الحمد لله الذى هداكم الى ولكن مادينك أنت ؟ »

قالت البيضاء « إننى مسيحية »

الريفيه « على حق من أصول دينك ؟ »

البيضاء « أعتقد هذا ؟ »

ثم قالت الريفية للآخرين « وحيث تخالفانها فلستما مسيحيين ؟ »

فأجاباها بأنهما لم يهتديا الى الله حتى الآن . ووافقوا الريفية أن يقلعوا عن النزول بالقاهرة وأن يبقوا معها ، إذ توسموا فيها الذكاء والمعرفة وحلوا ضيوفا مكرمين على ان يسردوا أمامها ماصادفهم من مخاطرات .

« ١ »

حتى إذا بلغوا حافة المدينة وبداية الصحراء قالوا تعبنا . فقالت الريفية « يا أهل الحضارة هلا تزعمون أنكم تعنون بالتربية البدنية عن طريق الرياضة ؟ ألا تدعون أن طبكم قد تقدم وبلغ بداية النهاية ؟ فكيف تشعرون بالتعب ولم يزد سيركم على ثلث ساعة ؟ ولكن لكم العذر كله . فما شأن تقدم الطب وماذا تفيد الرياضة مادامت ،مدنيتكم قد حوت إلى جانبها القدر الوافر من وسائل الفساد والانحلال الجسمى والخلقى ؟ »

وكأن هذا الكلام قد أثار من الزنجية موطن الحماس فنهضت تشير بالسير ، لكن البيضاء أشارت الى الشيخ قائلة لها « رحمة بهذا الشيخ الكبارة . ألا ترين ان كثرة المشى قد تؤلم عظامه أو تساعدها على التآكل ؟ » فقالت الريفية « ما دام يتعبه المشى على رجليه فلم لا يحاول المشى على رأسه كما هو كلف بالوقوف عليها ؟ » وأنقلب الكاتبُ واقفا على رأسه كأنه قد تذكر وقفته المحبوبة وأخذ يأتى بحركات مضحكة محاولا المشى فلم يستطع حتى قال « الحق أنى لست مُتعبا . لكنى أخاف . . أخاف أمراً أستشعر أنه لابد حادث . وها هو الغروب

بروعته قد ألبس الصحراء رهبة . . وكأنى بهذه الكتائب الرملية تتحفز لتطغى على . وأنتم تعلمون أن ليس معى ما أدفع به شرها عن نفسى على أن المهم انى أستشعر حدوث أمر أخافه وأرتعد منه » ولم يتم كلامه حتى أخذته رعدة عدلته وطلب منهن أن يحيطوا به لئلا يمسه سوء ، وسار الجميع يتوغلون فى الصحراء اللانهائية ، ولم ترد ريفيتنا أن تضيع الوقت سدى فطلبت من الزنجية أن تبد أسرد مخاطراتها فأعتذرت قائلة « هل لك أن تسمحى لزوجى أن يقص عليك بلسانه فانه قد أوتى من قوة التعبير وسحر اللفظ وفكاهة الأداء ما لم يتح لى مثله » وقبلت الريفية وتنحنح الكاتب كأنما ملكته سنة من الخيلاء وشمر عن ساعديه وقال [وأول شىء قابلته ثعبان يسمى مامبا ـ وهو أحد الثعابين القلائل السامة التى تنقض على الانسان إن هو تخطاها ؛ ولكن معلمة الأرسالية (وهى التى علمت الزنجية دينها وهى عضوة فى إرسالية تبشير) التى أغرمت بتوليف الحيوانات — لأنها كانت (الحيوانات) لا تحرجها بالأسئلة قط علاوة على أنها وديعة — قد علمت الزنجية ألا تقتل شيئا قط ان استطاعت أن تساعده ، وألا

كل كلام تحده هذه العلامه فهو منقول من كتاب برنارد شو بالنص او بالاجمال

المنير مخل

تخاف شيئا على الاطلاق . وعلى ذلك أحكمت الزنجية مسك عصاها وقالت للمامبا « إنى اعجب من الذى خلقك ، ولماذا أعطاك الرغبة فى قتلى والسم الذى تقتل به ؟ »

فأومأ اليها المامبا بلفة من رأسه أن تتبعه وقادها الى كومة من الصخور جلس على عرشه فيها رجل أبيض ، متين التركيب ذو مظهر ارستوقراطى وملامح حسـنة ، وذقن بارز وشعر مُتموج نخم كلاهما أبيض كالبللور . وعلاوة على ما تقدم فعلى وجه الرجل سيماء القسوة وعدم المبالاة وقد أمسك صولجانا من خشب قتل به المامبا فى الحال حين كان يقترب منه فى إعجاب وخضوع .

ولما تعلمت الزنجية الا تخشى شيئا ، شعرت بجفاء نحو الرجل لأنهـا أولا كانت تظن ان الرجال الاقوياء يجب أن يكونوا زنوجا وليس البيض سـوى معلمات الارسالية ، ولأنه ثانيـا قتل صديقها الثعبـان . ولأنه ثالثا كان يلبس قميصـا أبيض مضحكا وبذا جرح كبريائها فى الشىء الوحيد الذى لم تستطع معلمتها أن تناقشها فيه ، وهو أن تفرض عليها أن تخجل من نفسها فترتدى سترة قصيرة . وقد دل صوت الزنجية على نوع من الاحتقار للرجل حين قالت « إنى أبحث

عن الله فهل أنت قادر على توجيهى ؟ » فأجابها قائلا « لقد وجدتيه فاركعى على ركبتيك واعبديني فى التو أيتها المخلوقة المتحررة ، أو خافى غضبي الشديد .. أنا رب الملائكة . قد خلقت السموات والأرض وكل مافيها . وكما جعلت السم فى فم الثعبان جعلت اللبن فى ثدى أمك .. أنا الذى بيدى الموت وجميع الأمراض والرعد والبرق والعواصف والطاعون وكل ما يثبت عظمتى وجبروتى ! على ركبتيك يافتاة ولما تأتى الى ثانية أحضرى طفلك المحبوب واذبحيه هنا أمامى قربانا لأنى أحب رائحة الدم المراق حديثا » قالت الزنجية « إنى عذراء وليس لى ولد » فقال رب الملائكة « اذن فابحثى عن أبيك ليذبحك أمامى واخبرى أقاربك أن يحضروا كثيرا من الكباش والماعز والغنم لشيها أمامى هدايا لنيل رضاى والا فسأصيبهم بأفزع الطواعين ليعلموا أنى أنا الله » قالت « لست طفلة من الزنوج ولا طفلة كبيرة لأصدق هذا الهواء وبأسم الله الحق ساسحقك كما سحقت هذا المامبا المسكين »

• وصعدت اليه الصخور مهيئة عصاها ولكنها لم تجد شيئا حين وصلت الى القمة . ولقد أفزعها ذلك حتى فتحت كتابها المقدس لتهتدى ولكن ، سواء أكله النمل أو كان كتابا قديما باليا اكله العطب الطبيعى فان صفحاته الأولى قد تحولت إلى تراب ذراه الريح حين فتحته ، وعلى هذا

ابتسم الكاتب وقال أن قد انتهت المخاطرة الأولى للزنجية فى بحثها عن الله

وقالت البيضاء وعليها علائم الاشمئزاز «انه لقلب للحقائق رأسا على عقب» فطمأنتها الريفية وكانوا قد توغلوا الى مسافة نصف ميل تقريبا فى الصحراء

* * *

واختفى قرص الشمس تماما وراء الأفق الذى بدأت العين تميزه عن الأرض كمسافة عريضة مرتفعة، لونها أزرق باهت منير أخذ فى الدكنة كلما علا حتى لرأت العين السماء قاتمة كثيفة عند سمت الرأس. ولما أنهكهم المشى جلسوا مفترشين الرمال الدافئة. فقالت الريفية للبيضاء «ما كان ردك عليها؟» وكأن الكاتب لا يستريح الا اذا تكلم فقال «دعيك منها فلم تكن جادة فيما قالت كما كانت متعصبة فلم ترالحقيقة، لأنها صغيرة وكيف ترد على من قوسته الأيام والسنون؟» وسدت البيضاء فمه بيدها الصغيرة فسكت ثم انقلب كعادته فواصلت البيضاء «إنه يقصد بتخريفه هذا حكاية ابراهيم لما ذبح ابنه اسحق التى ذكرت فى التوراة. أتريدين أن أقصها عليك كما شاهدتها فى مخاطراتى؟» وأرادت الريفية أن توفر عليها الكلام لأنها كانت تعرف ما ستقوله ففضلت أن تقص عليهم هى قصة إبراهيم وولده

لأنها كانت الرمز الذى أشار اليه الكاتب فى مخاطرات الزنجية فقالت « كان ابراهيم تقيا وكان رسولا نبيا ، كما كان أيضا مسلما وكثيرا ما ناهض قومه وسخر منهم لما كانوا يعبدون من الأصنام . ويعجب كيف يعبد الأنسان حجرا صنعه بيده ! وكيف يقدم القربان الكثيرة دون تعقل! والأنسان فوق هذا يعلم حق العلم أن الحجر لا يأكل ولا يشرب ولا يتكلم ولا يحس . فكيف يتصوره يعقل فيهبه من الأشياء ليقضى له من أمور دنياه وليغفر له فى آخرته ؟ وقد تحمل إبراهيم من قومه الكثير فى سبيل إرشادهم الى الله الحق حتى انهم ألقوه فى النار مرة ولكن الله عصمه منها فخرج سالما معافى . وكان ابراهيم بأرض الشام حين تمنى من ربه ولدا فوهبه الله إياه وحقق رغبته فيه فكان الابن صالحا .

وفى ليلة هجع فيها القوم وشمل الطبيعة سكون رهيب ظل ابراهيم يتهجد حتى غلبه النعاس فنام . ورأى فى منامه حلما غريبا لم يتعوده ، فكأنه ممسك بابنه اسحق يذبحه . فلما انبلج الصبح أخذته الدهشة وأخذ يتروى فى الأمر ، وظن ان الشيطان قد لعب به فى هذه الليلة فأراده أن يذبح ولده . لذلك سمى هذا اليوم « يوم التروية » . ولكن إبراهيم رأى فى الليلة التالية نفس الحلم وزاد أن سمع صوتا يأمره بذبح ولده ، فلما قام

فى الصباح فكر فى الأمر ثانية وعرف أنه أمر الله لذا سمى هذا اليوم « يوم عرفة » . ولم يعص ابراهيم أمر ربه بل أخذ ابنه (وكان صبيا) الى الجبل ليجمعا الحطب . ولما بلغاه أخرج سكينا حادة ومال على إسحاق ينبؤه بما رأى فى المنام ، فما كان من اسحق الا ان طلب من أبيه ان ينفذ فيه أمر الله وخضع لأبيه خضوعا تاما ؛ فلما حرك ابراهيم شفرة السكين على رقبة ابنه وجدها لا تقطع بالرغم من حدتها . وسمع إبراهيم من يناديه أن قد نفذت أمر الله فكف عن ذبح ابنك وفطر حوله فرأى جبريل ممسكا بكبش كبير مقدما اياه لأبراهيم فداء عن ابنه ، رحمة من الله وتقديرا لأخلاصه . وهكذا كان الفداء ، وهكذا لم يرد الله سفك الدماء ، بل كان امتحانا لعبده وكان درسا للناس من بعده »

ولما انتهت الريفيه من سرد القصة ، اشارت الى القوم الذين شملهم وجوم عميق أن يهبوا ليسيروا قليلا ؛ فاعتدل الكاتب الذى لم يستطع المشى على رأسه وقال « لك أن تقولى كل شىء ولكنى اعتقد انى على صواب » فقالت الريفية « إن كان بلغ بك الحال حدا أصبحت معه تريد الناس بل ترغمهم على قبول ترهات تقلب الحقيقة رأسا على عقب ، فلك ان تقول فقط وليس علينا ان نقبل » فأشار الى الزنجية وهو يقول « سليها أذن مارأت من أمر هذا الاله ان كنت لا تصدقينى »

ولم يكد يتم كلامه حتى مادت الأرض تحت أرجلهم، وإذا بهم فى صعيد واسع تشمله هالة من نور باهر. اتخذت سماواته الوانا بهيجة كأن الأرض تجذبها اليها فتهبط، لكنها سرعان ماتعلو ثانية، وقد اتخذت هذه السماوات خاصيتى السوائل والغازات. وقد فرشت الأرض من سندس أخضر، تناثرت فيه مقاعد من مرمر لين ناصع رائق، يهبط تحت الجالسين اذا ما جلسوا ثم يعود الى شكله الاول اذا ما قاموا؛ وقد جلس على تلك المقاعد أناس لهم من الجمال قسط وافر ترى الماء خلال رقابهم حين يشربون من شدة صفاء ألوان أجسامهم..

رأوا كل هذا فكبرت ريفتنا لله وصعق الثلاثة الآخرون من الدهشة التى ملكت عليهم أزمتهم. وحاولوا الوقوف للاستمتاع بالفرجة لكن شيئا كان يدفعهم الى مكان معين فساوروا. وما شعروا إلا وقد سمرت أقدامهم فى الأرض حين وصلوا الى منعطف به ماء كاللجين تسبح فيه قوارب من ذهب خالص، تحمل حسانا مرحات مبتهجات فى غير ما فحش ولا خلاعة. وسرى فى أجساد أصحابنا صوت حاد هز كيانهم وشخص بأبصارهم؛ فاذا مياه البحيرة يرتفع فى شكل عمد رسمت حروفا لامعة وضاءة كونت الآيات الآتية تحت القبة الملونة

«قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم فأرادوا به كيدا فجعلناهم

الأسفلين وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعى قال يابنى انى أرى فى المنام انى اذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ماتؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين فلما اسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرءيا انا كذلك نجزى المحسنين ان هذا لهو البلؤ المبين وفديناه بذبح عظيم »

حاول الكاتب ان ينقلب على رأسه فخانته مهارته هذه المرة . وما هى الا لحظة توهجت الكتابة فيها امام أعينهم ثم اختفت . وقد كتبت بالعربية الا أن الكاتب وصحبه استطاعوا ان يقرؤها ويفهموها تماما. ثم ما لبثوا ان وجد الأربعة انفسهم حيث كانوا قبلا ، ولا اثر لما شاهدوا وقد جن الليل وحل على الصحراء من ضوء القمر الفضى خشوع وسكينة . وفكر الأربعة فى الرجوع وبدأوا فى ذلك حين قالت الريفية للكاتب « هل تستطيع المغالطة بعد الآن ؟ أم يفهم مما رأيت أن الله يحب سفك الدماء ؟ لك ان تقلب الفهم ما شئت وليس لك أن تقلب الحقيقة وتحاول إدخالها مقلوبة فى أوهام الناس .. انك جبار عاجز أراد الله اختبار عباده فقلت أراد سفك الدماء ، وأراد العظة وإحلال المحبة والاخلاص بين البشر وبعض وبين الله وبينهم فزعمت إنه مغرم

بشم رائحة الدماء الطازجة ! ولكن الحمد لله أن ليس الناس بلهاء لتأخذهم بلاغتك »

فانقلب الكاتب على الأثر ولكنه ما لبث أن اعتدل مرتعدا . إذ رأى القمر يهوى إليهم فى سرعة مخيفة حتى وقف على حافته على الرمال . فبدت صفحته المغضنة مرآة عاكسة يرى الانسان عليها صور المحبة والألفة مجسمة ملموسة ، وصور الخير كلها وقد اتخذت اشكالها . تدخل على النفس فتطبعها بطابعها . ثم لحظة وبرزت على القمر ألسنة من النار القانية كتبت الآية الآتية

« ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق »

ولم يكن القمر فى هذه الليله بدرا ، لكنه بدا بدرا وظل على تلك الحال زهاء جزء من الثانية ، خيل إليهم انه ساعة . ثم صعد الى مكانه وكأنه يبتسم . ونظرت الريفية إلى الكاتب الذى أخذ يداعب ذقنه فى حركة عصبية وقال لها « هيا .. هيا بنا أريد أن أنام . أعصابى لا تحتمل أريد أن أستريح » فقالت الريفية « أبمثل هذا يأمر الله عباده إن كان شرها إلى الدماء ؟ لعمرى لن تظل تنقلب على رأسك حتى تسقط أمعاؤك فى حلقومك فتموت خنقاً ! » وقالت الزنجية «ليكونن زوجى

قد أثر على أعصابى أو عالجنى بالتنويم المغناطيسى حتى رأيت الضلال فى مخاطراتى ، وقد أرادنى ان أراه .. عجبا ! لكن ما أجمل ما رأينا فى ليلتنا هذه ! »

فقالت الريفية وهى تربت على كتفها « وماذا رأيت !؟ سوف ترين أكثر من هذا بكثير ولسوف أعلمك لغة العرب وأهديك مصحفا لا تبلى له جدة ولا تذهب له لذة كلما فتحته للقراءة فيه »

وكأن الكاتب عز عليه أن يهزم بمثل تلك السهولة فقال للزنجية مراوغا « ومن يدريك أنها تنومك تنويما مغناطيسيا ؟ لاسيما وعيناها جميلتان ساحرتان ، دعك من هذه الريفيه يازوجى العزيزة فانى أوتيت العلم الاكبر ، وترين أن عينى ضعيفتان وهما أضعف من ان ينظرا إليك فضلا عن التأثير عليك حتى انى كثيرا ما فكرت فى استعمال نظارة ! ولكن الأزمة .. دعينا من هذا وافهمى ان الله يحب سفك الدماء ورائحة شى اللحوم »

وهيأت الزنجية عصاها تهم بضربه ، فقطعت عليه مواصلة الكلام وسكت . وأخذ يأتى بحركات مضحكة كأن يجرى بسرعة ثم يقف فجأة أو يقفز فى الهواء ثم يقعد محدثا اصواتا جنونية مزعجة . ثم رجاهن فى

الوقوف للاستراحة فوقفن . ووقف هو منقلبا كعادته. ولـكنه سرعان ما اعتدل إذ طغت الرمال عليهم حتى نصبت من نفسها امامهم سورا كبيرا لاحدود له، اخذت تلمع فيه حبيبات الرمال فى ضوء القمر، ولم يكن ليرى خلال هذا السد العظيم الا فجوة منـه امامهم ، جلس على عرشه فيها شبح يتشح بالبيـاض يعجز العقل عن معرفة كنهه . وقد انعكس منه ضوء مختلف الاشكال اظهر ما امام الشبح الساطع من الناس فى ملابسهم الحريرية الزاهية الالوان . فجرت اليه الزنجية تقول « هذا هو الاله الذى قابلته فى بدء مخاطراتى » ولحقها الباقون ، فاتخذوا أمكنتهم فى الصفوف بين النـاس وسمعوا هذا الشىء العظيم الجليل يقول الآية الآتية

« ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم »

وزال كل ما أمامهم على الأثر فوجـدوا طريق عودتهم ممهودة للسير . ولاحت أنوار القرية من بعيد فقالت الزنجية « غريب أمر هـذا الذى رأينا . . الا ترى معى يا زوجى العزيز أنا كنـا حالمين فصـحونا ؟ » فأجابها مغالطا « نعم بل هى أحلام اليقظة . . لا شىء سيؤثر فينا فيما بعد أن كنا أقوياء العزم » فقالت الريفية « بل كان

ضلالكم هو الحلم الذى شملتكم به مدنيتكم المادية ، ومطاوعتكم لأهوائكم وشياطين نفوسكم وغرائزكم البهيمية ، فى ظل التحرير من الأفكار القديمة ، دون وعى أو تبصر يعقل هواكم ويحكم امساك زمامكم . لقد سمعتم الآن الحق يأمركم الا تخشوا الفقر فتقتلوا ابناءكم . ما أجمل ما يعظكم به الله . . ولكنكم غافلون . . يا أيها الكاتب لو كان الله من صورت لهذه الزنجية حقا لاستحق كل ما عاملته به من قسوة وتحقير وامتهان . ولكن الله غير ما زعمت ولقد افتريت عليه الكذب فويل لك منه . ومن يدرى لعل الله يهديك على يدى ؟ »

وكان الكلال قد أعياهم حين وصلوا الى البيت فى ليلتهم هذه فراحوا الى مضاجعهم يغطون . تهب عليهم من فتحات النوافذ نسمة خفيفة باردة ، ويلفهم السكون بملحفة ويقبلهم ضوء القمر فى مواضع شتى .



« ٢ »

وقيل أن الزنجية طلبت من الريفية قميصا ترتديه تحت سترتها ، بعد أن بدأت تستشعر الخجل من نفسها قليلا . والحق لدينا أنها فعلا ارتدت هذا القميص الأبيض فى الصباح التالى . ولم يمر بنصف النهار الأول ما هو جدير بالذكر ، غير انهم أخذوا غذاءهم وقت الظهيرة وذهبوا الى حقل كبير . حتى اذا توسطوه جلسوا بجانب ساقية قامت بجوارها شجرة وارفة الظلال . وهكذا افترش اصحابنا الثرى الخصب وهيأوا الطعام الذى معهم وأخذوا يتناولونه بشهية غريبة . لاسيما والهواء حر من كل قيد لاعائق ولا مانع . فقالت الزنجية « الجو جميل واظنه أوفق وقت لسرد مخاطرتى الثانية » ووافق الجميع على قولها فبدأت قائلة « قابلت إلها ما كرا عجوزا محبا للمناقشة فسألته [لم خلقت الدنيا بكل هذا الشر الذى فيها ؟] فأخذ يراوغنى قائلا [ان هذا هو نفس السؤال الذى كنت أحب أن تسألينه . .] وقص على قصة النبى الذى يسمونه جوب [وكيف أن كان جوب هذا غبيا وضعيفا وكيف أن الله سلط عليه كل الشرور الدنيويه ابتلاه بها ، ليعرف أنه يستطيع أن يفعل به كيف يشاء . وقلت لهذا الاله « لا أريد مناقشة

بل أريد أن أعرف - ان كنت حقا خلقت الدنيا - لم خلقتها بهذه الحالة الرديئة البشعة ؟ » فعجب الرجل من لفظة الرداءة وأخذ يسخر منى ومن ضعفى. ويهيب بى أن أخلق دنيا أحسن من هذه أن استطعت ، بل حوتا بسيطا يجرى فى البحر ، بل فأرة صغيرة ! وهكذا أخذ يشمخ و يتعجرف و يضحك على هاربا من سؤالى فتعبت منه وسئمته ثم قلت « لئن كنت خلقت الدنيا بهذا الشر فلا بد أن لك ذوقا خاصا يميل الى الشرور » ولما لم يجب . بل استمر فى المحاورة الفارغة ليتهرب من سؤالى كما كان دأبه فى المراوغة . قلت « أن الها لا يستطيع اجابتى لانفع لى به » وهجمت عليه بعصاى فاختبأ متضائلا تحت المائدة التى جلس عليها ، ولم أدر الا والمائدة نفسها تغوص فى الأرض]

وهنا انقلب الكاتب وأخذ يأكل وهو على هذه الحال حتى شنق اكثر من مرة . فرغبت اليه البيضاء ان يعتدل لئلا يموت خنقا فاعتدل وقالت البيضاء للريفية « لقد قابلت نفس هذا الاله وكانت تعلو عينيه سحابة قاتمة حزينة بالرغم من ابتسامة خفيفة كانت تلوح على محياه . فلما سألته عن سبب حزنه قال « سأعلم الناس درسا فى قالب قصة — لأن الناس لا تفارقهم عقول الاطفال مهما كبروا فى السن — وهذه القصه هى قصة جوب . فان الناس يعتقدون ان الشر يحل

بالرجل اذا كان ضعيف الايمان سقيم الخلق فغضبت عليه . ولكن القصة ، وبطلها چوب ، ستظهر چوب هذا طيبا تقيا. وبالرغم من طيبته ستحيق به مصائب كثيرة . فيفهمون من القصة أنه فى حين أن فساد السريرة يأتى بالمصائب . الا ان هذه المصائب لاتحل دائما بفاسدالطبع وحينذاك سيتعلمون الشفقة على المعنىّ كما يتعلمون الشجاعة حين تنزل بهم نازلة أو تلم بهم ملمة .. سيعرفون هذا بعد ان كانوا يعتقدون فى ثلاثة اشياء : أولها انى اعاقب ضعاف النفوس بالخطوب ، وثانيها أن كل من يصيبه مكروه فهو ضعيف الخلق وثالثها انه ما دامت حلت المصائب بجوب فهو اذن فاسد السريرة » . هكذا أجابنى الله ولكنه لم يجبنى عن سبب وجود الشرور بالدنيا . إذ افهمنى ان عقولنا صغيرة وان هناك كثيرا من الأشياء الخارجة عن حدود ادراكنا مهما بلغنا من الكبر سنا وعقلا . وأنه ينبغى ان يلقن الناس درسا واحدا فى كل مرة ، بدلا من دروس مرة واحدة .. هذا ما وجدته بشأن ما سمته الزنجية «إلها ماكرا »

وقالت الريفية على الأثر « لعلك أخطأت انت الأخرى فى فهم القصة بعض الشىء . فقد عرفت الكثير عن تلك القصة التى يرجح انها ظهرت فى القرن الرابع . ولكنها لم تتم الا فى القرن الخامس قبل

الميلاد وهى قطعة شعريه رائعة صدق فيها قول پيك Peake «وأجل فائدة للكتاب (كتاب جوب) تنحصر فى تاريخ الروح أكثر منها فى مناقشة مسألة أو موضوع . وقد كان رائد مؤلفه او مؤلفيه فيه ان يكونوا معلمين قبل ان يكونوا شعراء او مفكرين . كما كانت العادة فى مؤلفات العبريين فى تلك الأيام » ولكننا لو أردنا ياصديقى ان نحكم على الكتاب كجملة ، او نستخلص منه ككتاب فكرة واضحة معينة ، لاخفقنا كل الاخفاق فهو غامض فى مجموعه . اما ان كانت هناك ظاهرة شملت كل ما وضح فى الكتاب على العموم ، فهى ، أن نظرية العقوبة العادلة قد رفضت تماما . بل وأثبت خطؤها . ولا نفهم من سيرة چوب نفسه فى الكتاب الا انه انكر العدل الالهى وشمله شعور الغرابة نحو الله .. علاوة على أن الشاعر نفسه الذى نظم حكايته لم يدلنا ان كان يعتقد اولا يعتقد ان الله يعنى كثيرا بأمور الفرد ، فى حين انه كان على يقين من ان العالم لم يخلق للانسان وحده . وقد كان الشاعر فى دفاعه عن عقيدته هذه قويا صارما خلال القصيد كله ، كما أكد ان كل اوهام البشر وتخيلاتهم وتفكيرهم لن توصلهم الى معرفة تسيير الله لمخلوقاته .. وهذا هو ما فهمت منه أن قال لك الله أن هناك اشياء خارجة عن حدود إدراك البشر »

وهنا أخذ الكاتب يهذى قائلا « هذا خطأ .. كيف يكون ذلك والعلم جاد فى طريقه لمعرفة كل شىء .. نعم كل شىء ! وسوف نعلم كل شىء أردتم أو لم تريدوا »

وهددته البيضاء بعصاها فسكت . وضحكت الريفية قائلة له « لا يغرنك ما عرفته وما ستعرفه بل وما ستعرفه الأجيال بعدك . فلن تكون معرفتكم أكبر من ذرة الرمال وسط محيط الصحراء المترامى . والا فهل باستطاعتك أن توضح لى ما الذى يدفعك على التنفس مادمت حيا . سواء كنت نائما أو يقظا أو مشغولا لا يبطل لتنفسك حركة ؟ ستقول أنها حركة غير إرادية . اذن بأرادة من تعمل ؟ لن تستطيع القول لأنك لا تعرف . ولنترك هذا لأبسط منه فهل تعرف السر فى حركة اللسان اللطيفة حين تمضغ الأكل فيساعدك على وضعه تحت اسنانك ونقله فى فمك حيث تريد ؟ يا شيخ هذا ابسط ما يمكننى أن أحرجك به علاوة على الكثير مما حولك من أشياء غامضة .. انى لا أحرم عليكم البحث بل ولا أكرهه . لكن الاعتراف بالحق فضيلة والحق هنا هو العجز عن الادراك .. فليبحث العلم كما يشاء لا حرج عليه الا اذا تكبر ونعرض لذات الله بسوء .. أوه ليس هذا محله .. »

وقالت الزنجية تريد تحويل الحديث الى المسألة التى تحيرها

« ولكن لم خلق العالم وبه كل تلك الشرور ؟ أليس من سبيل للاجابة »

وأجابتها الريفية على الفور تستدرجها « لو لم يوجد الشر بالدنيا لكانت أشبه شيء بالجنة »

قالت الزنجية « ولم لم تكن الدنيا جنة ؟ »

فأجابتها الريفية « لما كان هناك فارق اذن بين سكنى آدم فى الجنة وبين هبوطه الأرض عقابا له على عصيان أمر ربه»

ففكرت الزنجية قليلا ثم قالت « وكيف عصى آدم ربه ؟»

وأجابتها ريفيتنا قائلة « أمره الله هو وزوجته ان لا يقربا شجرة معينة فى الجنة . فوسوس لهما الشيطان حتى أكلا منها . فأهبطهما الله مع إبليس الى الأرض وجعل من ابليس عدواً لهما . . وبديهى أن لا ينزلهما الله ارضا هى والجنة سواء فان شئت تعليلا أعمق لقلت لك »

قالت الزنجية فى لهفة « هات ماعندك »

فابتسمت الريفية وقالت « هل تعتقدين ان الشر قد خلق لمجرد كونه شرا ؟ » . وتساءلت الزنجية « وهل خلق لشيء آخر ؟ »

فقالت الريفية « خلق الشر سلاحا وعونا وصيانة للكائن من الآخر . فأنت ترين ان الشر شر بالنسبة للمصاب به لكنه خيرا بالنسبة لمن فعله »

فقالت الزنجية فى دهشة « و كيف يكون الشر سلاحا أو خيرا ؟ إنى لا أفهم . »

وأجابتها الريفية « لو لم يكن السم فى فم الثعبان لما استطاع ان يعيش فى الوسط الذى يعيش فيه . كذلك لو لم تكن مخالب الأسد قوية فتاكة ما استطاع أن يفترس ليأكل . ولو لم تكن الأمراض لما رزق الأطباء .. وعلاوة على هذا وغيره فانه لو لم يكن هناك شر لما استطاع الأنسان ان يعرف الخير مطلقا . والأشياء كما تعلمين تعرف بأضدادها . . »

وقاطعتها الزنجية قائلة « أما كان من الممكن ان يخلق الله الأشياء متآلفات بطبيعتهن يحسون ويعرفون الخير . كما يعرفون الشر دون ان يخلق بينهم . فيستطيع هذا ان يأكل دون ان يضر غيره ، وذاك ان يعيش دون أن يضره أحد ؟ »

فقالت الريفية « كان هذا ممكنا ، ولكن حكمة الخالق رأت ان الدنيا كما هى الآن أصلح وأنفع للأنسان . ولأقرب الى ذهنك ما أقول أسألك لم اخترع الناس السكك الحديدية وقطاراتها وأصبحوا لا يستغنون عنها ؟ »

أجابت الزنجية على الفور « لأنها وفرت على الناس وقتهم وجهدهم

وقربت المسافات ، وزادت الصلة بين الناس ، فزادت المنفعة من جميع الوجوه وصارت حياتنا أحسن من ذى قبل »

فقالت الريفية « حسن جدا . هذا بجانب أن القطارات الحديدية تدهس الناس ، وتخرج عن قضبانها فتغرق فى الترع وتغرق الركاب وهكذا . لكنا قسنا النفع بالضرر فغلب النفع وفضلنا الا ننبذ السكك الحديدية . لذلك أقول بدورى — والقياس مع الفارق العظيم — ان الله عز وجل رأى ان خلق الدنيا بهذا الشكل انفع للانسان وللغرض الذى خلقه من أجله . والله حكيم لا يخطىء : وهو جل شأنه ، كما تدبر البشر وأخذوا حيطتهم من غوائل أخطار القطارات . كذلك لم يرد الله الا خير الأنسان فأنزل الأديان تهدينا إلى الخير ، ووهبنا عقلا يقينا السقوط فى الشرور ، ويهىء لنا اسباب النجاة والحيطة ، فليس علينا إذن أن نلومه ما دام قد هيأ لنا العلاج والوقاية لخير المجتمع . ولا أن نتطفل عليه بالسؤال لأنه لم يفرض على نفسه أن يعلمنا كل شىء وله الحرية كلها فى ذلك . . .

« انك تقولين لزوجك وابنك وغيرهما ، لا تتدخل فى شئون غيرك ، اذا اشتممت من أحدهما التدخل فى أعمالك . وهذا بدعوى

الحرية الشخصية التى اكتسبتها من المدنية . فكيف لا تستطيعين تصور عدم التدخل فى شئون الله وله الحرية القصوى لأنه خلقنا جميعا . لا شك أن له الحرية التامة فى أن يعلمنا أولا يعلمنا ، فى أن يخبرنا أو لا يخبرنا بأمور شكلها وخلقها ، علاوة على أنه لم يحظر على عقولنا أن تبحث وتعرف ما دامت تسير فى خطوط مستقيمة.. ان هذا لفضل منه عظيم لا يسعنا الا أن نشكره عليه ، على ما امتن علينا به من نعم .

وكان الجميع قد انتهوا من الطعام فهموا يغسلون أيديهم من إحدى الجرر التى علقت برحاية الساقية وبينما هم ينحنون لم يشعروا الاوهم على الماء جالسين فى رفق وطمأنينة . وأمامهم سبع من العذارى اللاتى لم تقع العين على أجمل منهن . وقد ارتدين ثيابا خضرا متسعة تفوح منها رائحة عطور لا تملها الأنف ، بل تظل تطلب المزيد . وقد جلسن على شبه أرجوحة دانية حتى غمرت سيقانهن فى الماء . وقد أخذت الأسماك المختلفة تقفز حولهن حتى علقت بحبل الأرجوحة الطويل . وكان اذا ما تابعها البصر الى أعلى وجد الحبل قد تدلى من لاشىء . ووجد السماء قد زينت بنجوم كثيرة كل منها قد ارسل شعاعا خاصا له لونه وبهجته . وقد ارسلت تلك الأشعة الى الماء تحتها ، فاظهر كل شعاع منها نوع من الأسماك الذى يتلون بلونه . وكأن شيئا قد نبه اصحابنا الأربعة الى

العذارى فسمعوهن يرتلن بصوت فاق الرخامة والعذوبة ، غير أنه كان خافتا له روعته وجلاله ، وكن يرتلن الآيات الآتية

« وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤنى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لاعلم لنا الاما علمتنا انك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما انبأهم باسمائهم قال ألم أقل لكم انى اعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون »

وأخذت الأشعة تنكمش قليلا قليلا حتى أنعدمت . وهوت الأرجوحة بالعذارى فى اليم واخذ الماء يرتفع بسرعة باصحابنا حتى كانوا على وجه الأرض . . فذهلوا برهة ثم أفاقوا يتحدثون بروعة ما رأوا . وكأنما أسبل ستار قاتم رقيق على عيونهم ، ولما ذهبت عنهم الغشية أحسوا أنفسهم فى المنزل كل فى مضجعه يسبح بحمد الله . ثم مالبثوا أن ناموا يتقون بالنوم شر القيلولة . وأخذ يداعبهم نسيم شرقى لطيف هو برد وسلام . فكنت تراهم فى نومهم باسمين

✡ ✡ ✡

« ٣ »

كانت هذه الليـلة أقرب إلى الدفء . ولم يبزغ قمرها إلا حوالى السـاعة الثامنة والنصف . فتكاسل الكاتب والبيضاء عن الخروج لمـا خرجت الريفية ، تصطحب الزنجية معها إلى قصر الليبرانتو الفرعونى ، الذى يبعد عن العزبة بمقدار ساعة قطعتاها سيرا على الأقدام . ولما لاح شبحه من بعيـد قالت الريفية « بنى هذا القصر العظيم فى عصر الملك أمنمحعت الثالث منذ ثلاثة آلاف من السنين . ويرجح أنه كان دارا لموظفى الحكومة . لأنه يحوى أكثر من ثلاثمائة غرفة يضـل المرء طريقه خلالها . وها هو كما ترين لا يزال يناطح البلى ويسـجل على الأيام والخطوب حضارة المصريين الفراعنة . »

وفى الحق أن هذا القصر يبدو فى الليله المقمرة متشحا بفيض من الروعة والجلال لا مثيل لها . وكأن كلا من أحجاره المتآكلة تنطق فى نفس واحد مع زميلاتهـا بقوة فرعون ، وتشـيد برقى مصر ، وتندد بثروتها وبذخها : وجلست الفتاتان بجوار الباب العظيم تتأملانه ثم تسرحان الطرف إلى القمر والنجوم ، وتهبطان به إلى الصحراء الرحبة

المعقدة بالكثبان الكثيرة ، تبدو لها ظلال كثيرة فى ضوء القمر فقالت الريفية فى زهو مصطنع مشيرة إلى القصر :

« ماراًيك فيمن بنى هذا ؟ »

وأجابتها الزنجية « جبار قوى حديدى الارادة واسع السلطة .. »

وأردفت الريفية مشيرة الى القمر والنجوم « وماراًيك فيمن علق هذه الأشياء على هذه الحال وجعل لها فلكها تجرى فيه بمقدار وميعاد ؟ »

أجابت الزنجية « أقوى وأجل واعظم »

فابتسمت الريفية قائلة « هو الله خالق الكون جميعا ! »

وكأنما تذكرت الزنجية شيئا فقالت « لكن الشاب اليونانى ..نعم هو اليونانى الذى قابلته فى مخاطراتى الثالثة .. لقد قال لى كلاما كثيرا كله حول إنكار الله والحياة الاخرى .. »

قالت الريفية دهشة « ولم أنكر ؟ وكيف ؟ ماذا قال لك ؟ »

وانشأت الزنجية تقص حكايتها معه قائلة : —

[قابلت شابا أبيض حليقا يونانيا فقلت له « لك عينان عارفتان وأنا ابحث عن الله فهل لك أن توجهنى ؟ » قال « لا تهتمى بهذا وخذى الدنيا كما تجىء لك . لانه لا شىء وراءها فان جميع الطرق تنتهى عند

القبر الذى هو مدخل اللاشيئية ، وفى ظل اللاشيئية فكل شىء عبث.
إسمعى نصيحتى ولا تكلفى نفسك عناء البحث عن شىء يبعد عن حدود أنفك . لأنك ستعرفين دائما أن هناك شيئا وراء هذا الأنف ، وفى ظل تلك المعرفة ستتمتعين بالسعادة والرجاء » قلت « لكن عقلى يثور إلى أبعد من هذا ، وليس من العدل أن يغمض الانسان عينيه . لأنى أرغب من الله ماهو أكثر من السعادة والرجاء ، فان الله سعادتى ورجائى» قال « وماذا لو وجدت أن ليس هناك اله ؟ » قلت « لأصبحن امرأة فاسدة أن لم أعرف أن الله موجود » قال « من قال لك هذا ؟ لا ينبغى أن تتركى الناس يقيدون عقلك بمثل تلك الحدود . علاوة على أنه ماذا يضيرك لو كنت فاسدة ؟ » قلت « هذا هراء فمعنى كونى فاسدة أن هذا أمر لا يجب ان أكونه »

فقال « إذن يجب أولا أن تعرفى ما يجب أن تكونى عليه ، قبل أن تستطيعى أن تقولى أنك صالحة أو فاسدة »

قلت « هذا صحيح ولكنى أعلم انه يجب أن أكون صالحة . حتى ولو كان هذا الصلاح فساداً » قال « لا يبدو فى كلامك شىء من الاحساس» قلت « ليس فيه نوع إحساسك ولكن فيه نوع الاحساس بالله

كما أنى أريد حيازة هذا الاحساس ، وأشعر بانى حزته . لذا فسأقدر على أن أجد الله »

قال « كيف تخبرين بما سوف تجدين ؟ نصيحتى إليك أن تؤدى كل عمل يأتيك ما دمت قادرة على ادائه ، وهكذا تملأين الأيام التى تعيشينها بالمنفعة والشرف ، قبل النهاية المحتومة ، حين تنعدم النصيحة والعمل والفعل والمعرفه والوجود أيضا »

قلت « لابد أن هناك حياة ثانية بعد الموت . فان كنت لا أستطيع أن أعيشها فانى قادرة على معرفتها »

قال « هل تعرفين الماضى الذى حدث فعلا ؟ لا تعرفينه . فكيف تأملين بأنه باستطاعتك معرفة المستقبل الذى لم يحدث بعد ! ؟ »

قلت « ولكن المستقبل لابد حادث وأعرف منه الكثير حتى أستطيع أن أؤكد لك ان الشمس لابد ستشرق كل يوم »

قال « وهذا ايضا عبث فان الشمس تحترق ولابد يأتى اليوم الذى تحرق نفسها فيه »

قلت « ليست الحياة سوى لهب دائب فى إحراق نفسه . ولكنه يتزود بنار جديدة كلما ولد طفل . كما ان الحياة أعظم من الموت والأمل أجل من اليأس . . سوف أؤدى العمل الذى يأتينى حين

أعلم فقط أنه عمل صالح . ولمعرفة ذلك يجب أن اعرف الماضى والمستقبل ويجب أن أعرف الله »

قال وهو يرمينى بنظرة شديدة « تعنين أنه يجب ان تكونى أنت الله »

قلت « على كل حال أشكرك ، فاننا نحن الشبان عقلاء ، وقد علمت منك أن معرفة الله هو أن أصير آلهة ! لقد قويت روحى وقبل أن اتركك فهل لك أن تعرفنى بنفسك ؟ »

قال « انا كوهيليث المعزوف باسم اكسلسياس الواعظ فليكن الله معك ان استطعت ان تجديه ! لكنه ليس معى . . تعلمى اليونانية انها لغة الحكمة » ثم ودع وانصرف]

فقالت لها الريفية « لك العذر ان لم تستطيعى إقناع هذا اليونانى » إذ كنت جاهلة وأظنك الآن أقدر على اقناعه . . وعلى كل فسأثبت لك وجود الله بطريق العقل . . انهضى »

وسارتا قليلا حول قصر الفراعنة وسادهما الصمت لحظات شملهما فيها التأمل والخشوع . وما هى الا غمضة عين حتى تبدلت الحال غير الحال . .

وظهر فى جزء من الصحراء ماء كثير كأنه حجز بحائط بللورى

شفاف كنت ترى خلاله جميع الأسماك النهرية والبحرية ! وسبحت الأسماك الصغيرة الملونة فى بهاء دقيق علوى ، بين الأسماك الكبيرة والحيوانات البحرية الضخمة ذات الألوان البنية أو الرمادية أو البيضاء والسوداء ، وكان المنظر بديعا أخاذا . زاده بهجة وجمالا اجتماع الأصداف واللآلىء البحرية فى قاعه ، فى شكل اهرامات ومخاريط منسقة الوضع بحيث لا يخفى بعضها البعض . فكبرت ريفتنا لله ودهشت الزنجية أيما دهشة !

وقبل أن تهما بالكلام استرعى بصرهما مدرج كبير ممتد الدرجات أقيم فى ناحية من الصحراء : وقد جلس على كل درجة منه جنس من الأجناس البشرية يمارس عاداته وتقاليده ولغته . حتى لكنت ترى جميع الحضارات مجسمة : قديمها وحديثها . كما ترى الحالات الهمجية واضحة كل الوضوح ظاهرة كل الظهور . واختلفت ملابس الجميع أيما اختلاف . فهؤلاء عرايا واولئك نصف عرايا ، وهؤلاء مهلهلوا الثياب واولئك فاخروا الملابس . وهكذا بدا الانسان على هذا المدرج فى جميع أطواره وعاداته ومختلف حضارته قديما وحديثا . كل ذلك بدا فى مشهد لا يؤذى العين ولا يكد الذهن ولا يثقل على الحس . فكبرت ريفتنا لله ودهشت الزنجية أيما دهشة !

ولما همتا بالكلام استرعت نظرهما غابة كثيفة انتصبت فى ناحية أخرى من الصحراء . وكانت الغابة كثيفة فى ناحية خفيفة فى الأخرى. منبسطة مزروعة قاحلة عشبية نامية ، وقد حوت جميع انواع النباتات المختلفة الأجواء ،كما حوت جميع الحيوانات التى تعيش فى تلك الأجواء : كبيرها وصغيرها ، ضعيفها وقويها . وأهم ما كان يأخذ النفس من ذلك المنظر العجيب ، مساحة لا بأس بها من الأرض كان دائمة التحول دائبة التغير ، تبدو تربة غبراء ، تغمرها المياه فتصير سوداء ، ثم تنقلب على بعضها وتبدأ خضرتها تنبت وترتفع ، ثم تنمو بنسب مختلفة ما بين زرع وشجر ، حتى اذا اكتمل نموها جميعا تلاشت الحال كلها . وترى الدواجن والحيوانات المستأنسة تفيض بها الأرض ثم تختفى حيث تبدأ الأرض عمليتها الأولى من جديد . بنشاط جديد . كل هذا يحدث فى مثل لمح البصر غير أن فتاتينا استطاعتا أن تعيا ما يحدث كل الوعى . فكبرت ريفتنا لله ودهشت الزنجية أيما دهشة !

وقبل أن تهما بالكلام استرعت نظرهما غدران وأنهار تجرى فى رشاقة ، بين جنات وحدائق واعناب نضيرة نظيفة ، نبتت فيها جميع أنواع الزهور والورود والرياحين . وبدت على الأزاهير والورد مختلف

فصائل النحل والفراش ، كما كانت تطير بين أفنان الشجر مختلف الطيور : المغرد منها وغير المغرد . وقد كسيت معظمها بريش جلت صنعة الفنان الذى لونه ونسقه فى أبدع الصور . فكبرت ريفتنا لله ودهشت الزنجية أيما دهشة !

وقبل أن تهما بالكلام استرعى نظرهما فى السماء تغيرات جوية مدهشة من برق ورعد ، ورذاذ ينساب وأمطار تنهمر ، وسيول تجرف كل هذا يبدو فى الأفق البعيد . اما الافق القريب فقد شغلته الكواكب والنجوم فى صورة مصغرة تدركها العين وكانت كلها تجرى فى افلاكها بمقدار . حتى لكنت تكاد تلمس أثر جاذبيتها بعضها لبعض . فكبرت ريفيتنا لله ودهشت الزنجية أيما دهشة !

وهنا كاد يصيبهما جنون وكلت حواسهما عن وعى بقية المشاهد . فأريد بهما رحمة . وغاص ماحير ألبابهما من المناظر المدهشة فى لحظة . فقالت الريفية لزميلتها « أرأيت كل هذا ؟ »

فقالت الزنجية « نعم . . ولو احتملنا لرأينا أكثر »

الريفية « من تظنين قد خلق هذه الأشياء وغيرها ؟ لعل اليونانى سيقول أنها خلقت من تلقاء نفسها ! »

الزنجية « ما أظنه يقول غير ذلك »

الريفية « إذن لأصبحت جميع هذه الأشياء واجبة الوجود لا تحتاج الى علة تعطيها الوجود »

الزنجية « لكنى لا أفهم ! »

الريفية « ألا تعلمين أن كل شيء علم لدينا قسمناه الى ثلاث ؟ أشياء واجبة الوجود وأشياء مستحيلة الوجود واشياء ممكنة الوجود »

الزنجية « اعلم هذا ولكن من يدرينا أن العالم أزلى قديم لم يحتج الى علة في وجوده ؟ »

الريفية « إذن لكانت له القدرة على ايجاد نفسه . ومن اتيحت له هذه القدرة فليس من المعقول أن يهب نفسه حياة ثم يسلبها من نفسه فيلحق به العدم والفناء . وأنت ترين أن ليس بالعالم مايدلنا على أنه لا يفنى »

الزنجية « بل آثار فنائه تظهر كل يوم بالموت والانحلال والعطب وغير ذلك »

الريفية « حسنا . ثم أن هذه الأشياء لا تفنى فى وقت معا . أى أنها أجزاء مختلفة وكثيرة لكل منها ميعاد وميقات يوجد فيه ثم يفنى فهل من المعقول أن يكون واجب الوجود ـ الذى له قدرة ايجاد نفسه . أجزاء مختلفة ؟ »

الزنجية « ولمَ لا ؟ »

الريفية « لو كان أجزاء لا ستلزم ذلك وجود جزء منه قبل الآخر أى أن بعض أجزائه وجدت من العدم . فتكون جملته سببا فى وجود جزء منه »

الزنجية « لكن معظم ما نراه فى الأرض له أسباب أوجدته كالفحم فى جوف الأرض ، سببه اندثار الأخشاب وطغيان الأرض عليها فدفنت فيها وتحول الخشب على مر القرون من أثر الضغط الذى فوقه والسخونة الى الفحم »

الريفية « أذن فليست الأرض بناء على ماتقدم أو الكون كله بالقياس الى الأرض واجب الوجود ولابد أذن من خالق أوجده . . هذا ما يقبله العقل . وهذا الخالق لابد أن يكون قويا قادرا لا يتغير كذلك يكون وحدة غير مجزأة ؟ »

الزنجية « هذا معقول »

الريفية « فقد اتفقنا انه لابد وان يكون هناك اله مسيطر قديم أزلى حى . وهب العالم وجوده والحياة التى فيه .. هذا هو الله عز وجل

فانبسطت أسارير الزنجية وقالت « هذا صحيح والآن أستطيع أن أقنع هذا اليونانى لو قابلته ثانية .. ولكن .. آه تذكرت لقد قال لى..»

ولم تتم كلامها حتى هزتهما ريح عاتية تستشعرا منها خوفا . وكأن شيئا بعثهما على الضحك الشديد ، وحملهما الريح فى أمان الى قصر معلق له لون السماء فى وضح النهار ، وهبطتا على بابه ، فاذا الباب من البللور الأخضر يرى خلاله ماء يجرى فى شرايين حمراء منسقة الأوضاع . وأخذ الباب ينكمش الى أعلى فى حركة لطيفة ثم يهبط ممتدا حتى العتبة وانتهزتا فرصة انكماشه ودخلتا بهوا واسعا حوى العجب العجاب من الطرف والفرش الوثيرة . سارتا قليلا فمرتا بأنواع الفاكهة مدلاة بخيوط من حرير . فرفعت صاحبتانا طرفهما الى حيث تتدلى تلك الخيوط ورأتا سلسلة فضية دقيقة تنزل من القمر وقد علق فيها القصر العظيم . وشد مادهشتا عندما سمعتا ألحانا موسيقية ، ودت الآذان لولم تفارقها الى المدخل المرصع بالماس والياقوت واللآلىء الأخاذة . فانتهيتا من هذا المدخل الى حجرة أشملهم عطرها قد كتب على حائطها الأمامى الآية الآتية . وقد كتبت بالأبنوس المحلى بالماس البراق :ــ

« هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لآية لقوم

يعقلون وما ذرا لكم فى الارض مختلفا ألوانه ان فى ذلك لآية لقوم يذّكرون »

وارتفع الحائط مختفيا فرأتا سردابا ارضه لينة. ما أن وطئتاها حتى انزلقتا الى بعد سحيق واستقرتا على أرض ثابتة خضراء فرأتا شيخا وقوراً لاحدود لملامحه فذهلتا عن شكله الناصع البياض الى مايقول فسمعتا الآيات الآتية : ـ

« وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون والقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون أفمن يخلق كمن لايخلق أفلا تذكرون »

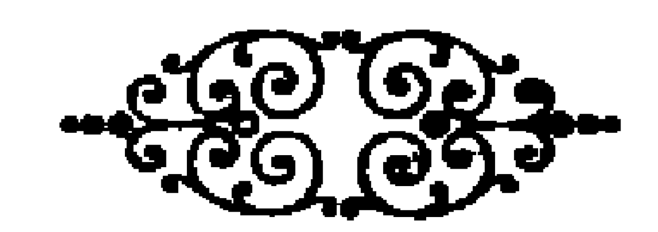
وهبط بهما نسيم لطيف الى حيث كانتا أول مرة فنظرت الزنجية للريفيه نظرة ملؤها الاكبار والدهشة. وتبادلتا حديثا قصيرا يفهم منه أن الزنجية قد ارتاحت كثيرا لما رأت ووعدت بأن تحكى لزوجها ما شاهدت. وفى هذه اللحظة همس فى أذنها صوت يقول « وماذا يضيرك لو كنت فاسدة ؟ » فتذكرت قول اليونانى وقالت للريفيه « همس اليونانى فى إذنى الآن قائلا (ماذا يضيرك لو كنت فاسدة) »

فقالت الريفية « يضيرك أشياء كثيرة . فالفساد معناه عصيان أوامر الله وعصيان أوامره لا يسلم من عقاب الآخره . علاوة على انه تلحق الضرر بالجسم والعقل والمال ويفسد المجتمع . ويمحو كل اثر للفضيلة ولا تبقى سوى الرذيله ماثلة شنيعة . فتصوري مجتمعا كل أفراده لصوص زنادقة سفكة للدماء لا يعرفون العفة الجنسية ولا الامانة ولا الوفاء ! اذن لما بقى للفرد أمان على ماله وعياله وزوجه ومتاعه وصحته . هذا اقل مايضير المجتمع الفاسد الذى تسيره الشهوات ولا يردعه الدين والعقل .. »

فأومات الزنجية برأسها أن قد اكتفت . وقفلتا راجعتين ، وقد شعرت كل منهما براحة ضمير ونقاء سريرة . وبدأت المحبة تجد مدخلا الى قلب الزنجية . حتى وصلتا الى البيت فلقيتا الكاتب واقفا على الباب ينتظرهما بفروغ صبر ، وبادرهما القول « لقد وجدت اشياء كثيرة وسمعت اشياء كثيرة انا والبيضاء فى المنزل فادخلا لأقص عليكما »

ولما قص عليهما ماشاهد مع البيضاء كان هو بالدقة جميع ما شاهدته الريفية والزنجية فى هذه الليلة . فأخذ منهم الدهش كل مأخذ . ولكنهم لم يقووا الكلام . لانه اولا كان قد اعياهم التعب والسهر ، وثانيا كان لما شاهدوه حظ كبير من تصديق نفوسهم . ففضلوا النوم ، وذهب كل الى مخدعه ، حيث كان الجو يشعر بالبرودة ، فاغلقوا النوافذ

وراحوا فى سبات عميق لم يفقهم منه سوى آذان الفجر ، يعلو من حناجر المؤذنين ! وتسبيح العصافير فى الفجر وهى ترسل تغريدها فى الفضاء معلنة انكماش الليل وطغيان النهار .



« ٤ »

وأصبح الصباح نديا . وعادت ريفيتنا من الخارج بعد أن ملأت جرتها كعادتها ، ونادت أصحابها الثلاثة إلى فناء الدار لتريهم كيف يحلب البقر ، وكيف تستخرج الزبد والجبن من لبنها . وبعد تلك المشاهدة الطريفة ، استأذنت ريفيتنا لمدة عشرة دقائق لتؤدى صلاة الصبح فى حجرتها . ثم عادت فوجدت الكاتب الشيخ متوعكا قليلا . وفضلوا أن يستريحوا بالمنزل هذا اليوم . بعد ان وعد الكاتب ان يقص عليهن حكاية الزنجية مع العالم النفسانى ، ليرفه عن نفسه ، ولتكون تلك المخاطرة مداعبة اليوم . وبعد تناول الافطار المكون من اللبن والشاى والزبد والعسل الأبيض . أشعل الكاتب سيكارته وقال

[كانت الزنجية تجرى مسرعة على اثر سماعها صراخا شديدا بالغابة صدر من عجوز يدعى أنه نبى . ولما افاقت من جريها ، سمعت صوتا صادرا من رجل كبير السن ، يلبس نظارة ويجلس على كتلة خشبية مغضنة ، وقال الرجل لها « ليست مخاوفك ورجاؤك سوى أوهام : فقد سيطرت عليك حالة رد فعل ، لاسيما وقد تعودت أن تسمعى هدير الأسود — التى تعيشين حياتك بينها — مصحوبا بتوقع خطر

يميت . فلما نهق هذا الحمار العجوز الخرافى بصوته الأجش ، طارت مخيلتك إلى أعلى فاسرعت الى الجرى دون وعى .. لقد استغرق منى هذا الاستكشاف خمسا وعشرين سنة فى بحث متواصل ، قطعت أثناءه امخاخ كلاب كثيره . وكنت اخرق فكوكهم بدلا من خرق السنتهم لأراقب بصاقهم على اثر جريان ريقهم .

وترين الآن ان العالم أجمع خاضع تحت قدمى ، معجب بهذا التحصيل الاكبر ، ويلهج بالشكر لهذا الضوء الذى غمرت به معضلات الخلق الانسانى »

وقالت الزنجية « ولم لم تسألنى ؟ لكنت أدلك على هذا فى خمس وعشرين ثانية دون أن تؤذى هذه الكلاب .. »

فقال لها العجوز القصير النظر « إن جهلك وشجاعتك فاقا كل كلام .. لقد كانت الاطفال تعرف هذه الحقيقة . ولكنها لم تتحقق تجريبيا فى المعمل ، لذلك لم تكن معروفة علميا على الاطلاق فوصلت الى كفكرة غير مهذبة ، وقدمتها للعلم ناضجة .. هل لى ان أسألك ان كنت قمت بتجربة قط ؟ » .]

قال الكاتب هذا لمستمعاته وضحك ساخرا وهو يقول « لقد ظن

هذا العالم أن زوجى بلهاء غير متعلمة ، وهو يسألها ان كانت قد قامت بتجربة قط . ولكنها اجابته بسرعة قائلة [« قمت ببعض التجارب . وسأقوم الآن بواحدة . تعرف علام تجلس الآن ؟ »]

فأجابها قصير النظر « أجلس على كتلة خشبية رمادية مغطاة بألياف شجرة بالية »

فقالت الزنجية « إنك مخطىء . . فانظر تر انك جالس على تمساح نائم ! » وصرخ الأستاذ صرخة يحسده عليها الكثيرون . وقفز حالا الى شجرة مجاورة يتسلقها كالقط بنشاط غريب ، يعتبر بالنسبة لهذا العجوز ، فوق طاقة البشر . ثم التفتت اليه الزنجية قائلة « انزل . فقد كان عليك أن تعرف أن التماسيح لا توجد الا بقرب الأنهار . لقد قمت معك بتجربة فقط . . هيا انزل »]

وصل الكاتب فى قصته الى هذا الحد والتفت الى الزنجية ، فالتفتت الفتاتان اليها فوجدتاها وعلى فمها إبتسامة الخيلاء ، كأنها أتت أمرا مستعصيا فهى تفاخر وتزهو به . ثم واصل الكاتب حديثه قائلا [فقال لها الأستاذ والدموع تنهمر من عينيه « لا أدرى . . هذا كفيل بأن يجعل الأنسان يؤمن بالمعجزات . . ما كنت أستطيع تسلق هذه الشجرة . ولكنى هنا الآن ولاقدرة لى على النزول »

فقالت الزنجية « تجربة مسلية أليس كذلك ! »

فزمجر قائلا « إنها تجربة قاسية مريبة أيتها الخاسرة . هل جال بفكرك أن تقتليني ؟ هل تظنين انه يمكنك أن تأمني رد الفعل الخطر على القلب اذا اصبت هذا التركيب الجسماني الرقيق بهزة عنيفة مثل هذه ؟ لن استطيع الجلوس على كتلة خشبية أيام حياتي الباقية ! اعتقد أن نبضي غير طبيعي حتى لا استطيع عده . إني اذا حاولت ترك هذا الغصن فسأسقط كالحجر ! » وقالت الزنجية في هدوء « أظن ان السحر الافريقي اقوى بكثير من تقسيمك أمخاخ الكلاب . كلمة واحدة جعلتك تتسلق الشجرة كالقط ، حتى اعترفت انها معجزة ! »

وهمهم العالم قائلا « هل لك أن تقولي كلمة أخرى انزل بها ؟ يالك من ساحرة سوداء ! »

قالت « سأفعل . فانظر تر ثعبانا يشمشم خلف رقبتك » وما أن سمع هذا حتى كان قصير النظر على الأرض في الحال ، ثم قال « أعرف تماما أنك اخترعت الثعبان لتخويفي . لذا فانك لم تخدعيني هذه المرة »

فقالت « وعلى الرغم من هذا فانك خفت كأنه ثعبان حقيقي »

قال مكابرا « كلا لم أخف مطلقا ! » فقالت « ولكنك سقطت كأن قد خفت » ولما شعر بالطمأنينة قال مستجمعا شجاعته « هذا مدهش !

لقد كان إنعكاسا متحكما فى بشدة عجبا ! هل أستطيع أن أجعل الكلاب تتسلق الأشجار ؟ »

قالت « لماذا ؟ »

فقال فى دهشة « لماذا ! لاضع أساسا علميا لتلك الناحية » . غير أن الزنجية اجابته قائلة « هراء . أن الكلاب لا تستطيع تسلق الشجر » فقال لها العالم « كذلك أنا ما كنت لأستطيع لولا مؤثر نتج من توهم تمساح . والمهم الآن كيف أجعل كلبا يتوهم تمساحا ؟ » فقالت « عليك اذن ان تعرفه ببعضها » قال « هذا الامر كثير التكاليف . وليس أسهل من شراء الكلاب ، لكن التماسيح امرها عسير وتكاليفها أعسر لكن لابد لى من أن أبحث هذا الأمر جديا »]

وما ان انتهى الكاتب الى سرد هذه الحادثة حتى اغرق الجميع فى الضحك . وفضل الكاتب ان يكتفى من المخاطرة بهذا القدر ، لأن القهوة كانت قد اعدت واخذ الجميع يتناولونها بين السمر الظريف والنكات المباحة ...

* * *

وأراد ثلاثة الضيوف من ريفيتنا أن يزوروا القاهرة ، فاشترطت عليهم الا يزوروا منها سوى المقابر . وأما بقية المدينة فيمروا بها مرّ

الكرام . ولما سألوها السر فى هذا الشرط قالت « أخشى ان تفتنكم المدينة ، لأن ظواهرها خلابة فاسدة ، وهى أقرب الى غرائزكم البهيمية ، والناس فى هذه الايام أطوع لغرائزهم الوحشية من عقولهم . سيما وأنتم لا زلتم مترددين ، لكم من تعصبكم الأهوج لكل ماهو حديث قوة لايستهان بها ، وضلالة لا مزيد عليها »

وهبطوا القاهرة ليلا فاسرعوا الى مقابر الامام الشافعى ، حيث كانوا الأحياء الوحيدين فى مدينة الموت . وكأنى بالأموات يشفقون عليهم كل الأشفاق ، ويبكون لحالهم كل البكاء ، كما يشفق الأحياء على الميت المسجى بين جدرانهم كل الأشفاق ، ويبكون لحاله كل البكاء ، والكثير من الناس بل غالبيتهم الساحقة يخافون المقابر ليلا . ويتحاشونها نهارا ، وترتعد فرائصهم منها فرقا وهلعا .

وفى الحق انهم لايخافون الأموات الذين فى المقابر ، إذ لن يقوم هؤلاء ليشبعوهم ضربا ! وهم كذلك لايخافون تلك الأبنية المتواضعة ، التى يكسوها الليل مسحة رهيبة من السكون ، إذ لن تقوم هذه الأبنية ضد الآدميين ! وهم أيضا لايخافون السكون والظلمة فى ذاتها لأن السكون والظلمة لن يمسا الأنسان بسوء ! أذن مم يخافون ؟ إنهم يخافون الموت فى ذاته بل . ويكرهونه اكثر الكراهية ، ويمقتونه أشد

المقت . يخشى الأنسان الموت فى ظل الأموات ، وفى ظل المقابر ، وفى ظل سكون الليل وحلكته ! فهنا يتضاءل الأنسان إلى أقله مهما كان قويا جبارا ! وهنا تظهر نهاية كل شيء بأجلى معانيها ! وهنا يتجسم الهدى والضلال لكل ذى عينين بل لكل أعمى البصر !

ووراء كل هذا تتجلى قدرة الله وجبروته كأعظم ما تكونان شأنا وأثرا فى النفس . وبالجملة فكل ما يحيط بالكائن الحى هنا ، السنة شداد ورموز صعاب ، تنبعث من الحجارة ومن الأديم ومن العظام ومن الخرق البالية ومن السماء ومن الهواء ومن الظلمات ومن الكواكب أجمع ، وحتى من أنفاس الأنسان نفسه ، كل تلك الألسنة وهذه الرموز تصرخ بأصوات حادة نفاذة ، لا يعوقها فى طريق النفوس عائق ، ولا يقصيها عن الأحساس شيء ! كلها تقول فتصم الآذان بما تقول ، وكلها تشعر فترجف الحس بما تشعر ، وكلها تنطق فيفرق الجسم لما تنطق . وليتها تقول كثيرا أو تشعر كثيرا أو تنطق بالكثير لكنها لا تقول ولا تشعر ولا تنطق الا كلمة واحدة هى الموت ! والموت كلمة ومعنى يعرفها الأنسان حق المعرفة !

ليس بمدينة الموت سوى شيء واحد هو الموت! والأنسان يعرف حقا ما هو الموت ! وهكذا سار أربعتنا كل ينظر إلى صاحبه ثم الى

ماحوله من أشياء! وإذا استطاع إنسان أن ينفذ ببصره الى نفوسهم لوجدها ولا يشغلها سوى إحساسات مختلطة كلها مخيف : هى خوف من الموت ، وندم على ما فات ، وجزع من العقاب ، ويأس من رحمة الله وغير ذلك . لكن ريفتنا كانت تخالفهم كثيرا . فقد سيطر عليها خشوع كثير واطمئنان كبير ، وثبات وأمل لامزيد عليهما . والقلب العامر بذكر الله ، العارف لفضله وجبروته ، لا يكون إلا كقلب ريفيتنا هذه .

وانطلقت ريفتنا تقول « لا تزال السبل ممهودة للرجوع . ورحمة الله أوسع من أن تضيق بكم ، وليس إلا التوبة مدخلا رحبا واسعا اليها » وكأن كلامها جرح كبرياء الكاتب العنيد فتنبه الى نفسه ، يحاول تهدئتها قائلا « يافتاتى . هل ظننت أنا نخاف . . كلا وحق مدنيتنا . انا أقوياء وعقائدنا أقوى ! » فقالت له البيضاء وكانت اقربهم الى حالة الريفية « إنك تكابر ويلوح انك توهم نفسك بالثبات ورباطة الجأش ، وأجدر بك الا تخاف فتنكر على نفسك ذلك ، بل تعرف الحق فتطمئن اليه وتتخذه نبراسا يضىء أمامك الطريق ، وتغذيه بذكائك وقواك العقلية وقدرتك الأدبية فى وضع الروايات والقصص تضمنها آراء صالحة »

ولما هم الكاتب بالكلام هددته الزنجية بعصاها فسكت وبدأت تسرد إحدى مخاطراتها الهامة قائلة وقد انصت الكل . [قابلت رجلا جالسا على بئر ذهبت لأشرب منها فقدم لى كأسا مملوءة فشربت ، ثم أخفى الكأس بطريقة عجيبة كأنه ساحر . فقلت له « يالك من ساحر عظيم ! وأغلب ظنى انك تستطيع ان تقول شيئا لفتاة سوداء . إنى ابحث عن الله ، فأين هو ؟ » فأجابنى الساحر قائلا « انه فى روحك كما انه فى روحى أيضا » فقلت « أعتقد ذلك ولكن ما هو ؟ » فقال « هو أبونا »

[فقلت وقد فكرت قليلا ثم تجعد وجهى عن الدهشة « ولم لا يكون أمنا ؟ » ودهش بدوره وقال « ان أمهاتنا يحتجن الينا كى نقدمهن لله . ولو كانت أمى هى التى وجهتنى ، لكنت الآن رجلا غنيا بدلا من فقير جوال . لكنى ما كنت استطعت أن أجد الله » فقلت للرجل « لكن أبى كان يضربنى دائما فى حداثتى ، وحتى صرت من الكبر بحيث كنت أستطيع أن أضربه بعصاى . وبعد ذلك حاول أن يبيعنى لجندى أبيض ترك زوجه وراح يعبر البحار ! لقد كنت دائما ارفض أن أقول « أبانا الذى فى السماء » فكنت أقول « جدنا الذى .. » وهكذا ترى انى لن اقبل قط إلها هو أبى »]

وهنا قالت البيضاء — لقد قابلت نفس هذا الرجل الذى تحكى عنه الزنجية . فلما علم منى أن أبى كان يتركنى ليلعب الجولف ولا يعنى بشئونى كثيرا قال الرجل « لم يكن هذا ابيك قط كما لم يكن إلهك ولو كان اكثر بك برا ، لكان أقرب شيء لله ، ولو كان أبا بارا كاملا لكان أشبه بالله تماما » هذا ما قاله لى هذا الرجل الطيب

فقالت الزنجية محتدة قليلا « أرجوك ألا تقاطعينى . انتظرى حتى أتم كلامى أو اترك لك المجال » وتدخلت ريفيتنا قبل ان تتفاقم الحالة ويصبح الأمر أصعب من أن يوجد له حلا . فاعتذرت البيضاء وقالت الزنجية [ولما سمع الرجل كلمة « جدنا » ابتسم وقال « لكن هذا لا يمنع ان يحب بعضنا بعضا كما يحب الأخ اخته » قلت « لكن المرأة لاتحب أخاها . فان قلبها يتجه نحو شخص آخر كما يتجه قلبى نحوك » ولما سمع الرجل هذا الكلام ورأى انى ضيقت عليه الخناق قال « حسنا فلنسقط العائلة من الحساب . لقد كان ما قلت على سبيل التشبيه فقط ، لسنا الا اعضاء فى جسم إنسانى واحد ، لذلك فكلنا عضو من الآخر .. دعينا نتفق على هذا . هه ! » قلت « لكنى لا استطيع . فقد اخبرنا الله انه لاشبه بينه وبين الاجسام والآباء والامهات والاخوات والاخوان]

فقالت الريفية ـ هذه إجابة حسنة جدا غير أنه لا ينبغى أن تنسى

أن لله السيطرة على الكائنات جميعا ، لذلك فهو شديد الاتصال بها جميعا.
لكن لا تؤاخذيني على مقاطعتك .. اتمى .

وابتسمت الزنجية وراحت تواصل حديثها قائلة [عند ذاك قال الرجل « كل ما فى الأمر أن ذلك على سبيل التعبير عن حبنا بعضنا البعض . فلتحبى من يكرهك ، ولتسامحى من يسبك . ولا تنسى أن أسودين لا يعملان أبيضا » فقلت له « لكن لا أريد أن يحبنى الناس جميعا ، فلست أحب كل إنسان علاوة على أنى لا أريد ذلك ، وقد أخبرنى الله الا أؤذى الناس بعصاى لمجرد كراهيتى لهم - إن حدث ان كرهونى - كما لم يعطهم الله حق إيذائى .. وقد جعلنى الله أكره كثيرا من الناس ، ولا شك فانه يوجد من الناس من يجب قتلهم كالثعابين لأنهم يسرقون ويقتلون الآخرين » فقال الرجل متأففا « لا أرغب ان تذكرينى بهؤلاء الناس لأنهم ينغصون حياتى » فقلت « إنه لمما يحسن الأمور أن ننسى ما لا يسر فيها ، ولكن ذلك لا يجعل الخطأ صوبا ، ولا يدفع بالإنسان إلى الاعتقاد بها . . هل تحبنى حقا وباخلاص ؟ » قال على الفور « لا تجعليها مسألة شخصية بيننا ! . » فقلت « ولكنها تفقد معناها إن لم تكن مسألة شخصية . هب أنى قلت لك أنى أحبك - كما تريد منى ذلك - فهلا تشعر أنى أشاركك حريتك ؟ » فقال الحاوى

« مطلقا . ويجب أن تفكرى فى هذا ، فبالرغم من أنك سوداء وأنا أبيض فكلانا يتساوى أمام الله الذى خلقنا »]

وهنا اشمأزت الريفية من الزنجية لما نعتت المسيح بأنه حاوى ، فاستأذنت منها وقالت « إنى لا أحتمل أن تنعتى رسولا من رسل الله بأنه ساحر (أو حاوٍ) فان ما قام به عيسى أمام الناس مما زعموا أنه سحر ، لهو معجزات من عند الله صادقة . وقد كان لابد من تلك المعجزات حتى يؤمن البشر بأن الشخص الذى أمامهم مرسل من عند الله . ولكل رسول معجزاته الخاصة تبعا لما يلائم عصره وأمته . . ليس ذلك سحرا ! كيف تستكثرون على الله أن يهب عبدا من عباده قدرة خارقة ثم لا تستغربون اللاسلكى والتليفون وغيرهما من القوى التى اكتشفها البشر ، والقياس مع الفارق الكبير طبعا ! يا للانسان لايجد سانحة للتمرد الا انتهزها ، ولا أسهل عليه من تكذيب ما يضيق عنه فهمه وتصوره .

« دعينا من هذا الآن فان لى معك كلمة عن فكرة التساوى أمام الله . عليك أن تعرفى أن إنسانا لا يفضل الآخر الا بالتقوى . . هب أنك ملكة ذات سلطان واسع وثروة ضخمة وعز وسؤدد ، ولكنك مع هذا فاجرة . ثم هب أن إنسانا ما فقير معدم ولكنه رجل صالح

فهل تتساويان أمام الله ؟ مطلقا . فهو بلا شك أفضل منك وأكبر مثوبة . ولكل منكما جزاؤه بناء على ما قدمت يداه »

وفى الحال اهتزت الأرض تحت أقدامهم ، ورأوا حجارة المقابر تتوهج . فانكمشوا يسند بعضهم بعضا ، حتى علا فى المكان دوى أشبه بقهقهة من حنجرة ذات صوت جميل . وأخذ النسيم يتقابل ويتلاقى ، ثم يستوى على الأرض منتصبا فى شكل ستائر تتراص متوازية وراء بعضها البعض . وقد اتخذت كل منها لونا من ألوان الشفق صافيا ، ترى العين خلف الستائر قرصا كبيراً ماثلا كقرص الشمس لونه أخضر يانع لا تتقذى العين من رؤيته . واختفى كل بناء حولهم ، وصار الأديم مستويا خطت عليه نقوش بديعة الهندسة . وكأن مواضع من هذا الأديم قد ركبت فيها أحواض من فسيفساء ، تترقرق فيها عجينة زاهية . وكانت حوائط الأحواض لا تستقر جزئياتها على حال وهى دائمة الحركة ، دائمة التشكل . وهى تصدر فى حركتها أنغاما موسيقية هادئة خافتة تشنف النفس قبل أن تعيها الآذان .

وكأن شيئا رفع أبصار أصحابنا الى السماء ، فرأوها زرقاء تتلألأ فيها النجوم . وكأنها (النجوم والسماء) تهبط عليهم ، لولا عمد من ماء كاللجين ارتفعت من الأرض فاستقرت السماء عليها . وتدلت

أمراس من لؤلؤ علقت فيها ثريات ، أخرجت أشعة منظمة عكسها القرص الأخضر فبدت عليه ترسم بالأشعة الآية الآتية : ـ

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم »

وتضاءلت الأنوار قليلا ، وحل محل القرص كرسى خشبي جميل جلس عليه عربى وضاء الجبين مرسل اللحية السوداء قليلا ، تعبر هيأته عن رجولة كاملة . وكان يقول لعرب جلسوا أمامه

(لافضل لقرشى على حبشي الا بالتقوى)

« حديث شريف »

وزال كل شيء على الأثر ، وجلس الجميع (الاربعة) على حجر قبر كبير . ووجدت الزنجية زوجها الكاتب يرتعد فتقربت منه تداعبه وتلاطفه بأن تداعب ذقنه بأصابعها تزيح عنها التراب . ثم التفتت الى الريفية وقالت « سأتم لك قصتى عسى ان يحدث شيء آخر . فانه بعد أن قال لى هذا الرجل ـ ولاحظى انى ساحترمه من الآن فصاعد ـ لما قال اننا كلنا سواء امام الله قلت له [« انى لا أفكر فى هذا قط » ، فقد نسيت حين تكلمت أننى سوداء وانك لست سوى ابيض فقير . فلتظنني ملكة بيضاء وانت ملك ابيض ! ياالله ماذا حدث لك ؟ لم تهم مندهشا ؟ » فقال « لا شيء .. لاشيء .. أوه .. حسنا فأنا افقر الفقراء

البيض ، على انى ظننت فى نفسى أنى ملك . ولم يكن هذا الظن الا حين أورثنى فساد الناس الجنون » فقلت « لا تخجل فقد رأيت ملوكا أسوأ منك . حسنا : فلتكن الملك سليمان ولأكن ملكة سبأ . تماما كما جاء فى الكتاب المقدس . وهب انى جئتك أقول انى احبك فمعنى هذا انى جئت لأسيطر عليك .. أحبك حب اللبؤة فأنهشك لأجعلك جزءا من كيانى . بعد ذلك لن تفكر فيما يرضيك بل فيما يرضينى وحدى . فانى فى هذه الحال سأقف بينك وبين نفسك ، بينك وبين الله . أفلا يكون ذلك ظلما فظيعا ؟ الحب ياعزيزى شىء ملتهم ، هل تستطيع ان تتصور الجنة وقد ملئت حبا ؟ »]

وهنا قاطعتها الريفية قائلة وهى تضحك — إنك تسخرين بالحقائق سخر زوجك من وقوف الناس على أرجلهم .. ياعزيزتى متى كان الحب جشعا وسيطرة والتهاما ؟ أظن انك تعلمين ان الحب تضحية وخضوع وبذل .

وبدا السرور على وجه البيضاء حين قالت — هذا ما قلته لها بالضبط فلم تصدق .

وعلقت الريفية على كلام البيضاء قائلة — ولكن ينبغى الا تنسى ان هذه التضحية والخضوع والبذل ، لم تصدر الا عن أنانية الانسان

التي تحيط بجميع اعماله . إني لأعجب من هذه الغريزة وسيطرتها على النفوس .

وقالت البيضاء — وكيف تصدر كل هذه الفضائل عن الأنانية وهي رذيلة ممقوتة ؟

فأجابتها الريفية — لاشك أن الأنسان يحب ذاته اكثر من أي شيء آخر . وهو اذا احب شخصا ما عمل أولا على إرضاء نفسه عن طريق هذا الحب بشكل غير مباشر ، فهو يبذل ويضحي ويخضع ليرضي المحبوب فينال أكبر قسط من المتعة ، وهذا هو ارضاء الذات أي الأنانية .. لكن ليس هذا مجاله .. واصلي أيتها الزنجية حديثك لئلا نترك قطار الليل الى الفيوم .

فقالت الزنجية — قال الرجل بشجاعة يشوبها القلق [« ليس في جنتي سوى الحب وماذا عسى ان تكون الجنة الا الحب ؟ » فقلت « انما الجنة هي النصر .. إنها بيت الله ومهبط أفكاره » ثم قلت « وقد علمتني معلمة الارسالية الدين وتحدثت عن الحب ، لكنها هربت من جميع أحبائها لتتفرغ لعملها الالهي . كذلك يحول البعض أعينهم عني الا إذا أحبوني . . وهناك جمعيات من الرجال والنساء وهبوا انفسهم لاداء الواجب نحو الله . وهم لا يكلم بعضهم بعضا بالرغم من أنهم

يسمون أنفسهم إخوان وأخوات » فقال الرجل « لهذا سيء جدا عليهم »
وقلت « إنها غباوة بالطبع فعلينا ان نعيش مع الناس أحسن عيش
ممكن ، ولكن هل يبدو الآن ان أرواحنا اكثر حاجة الى الوحدة
من حاجة أجسامنا الى الحب ؟ اننا محتاجون الى مساعده بعضنا
البعض باجسامنا وارواحنا ، لكن أرواحنا تحتاج الى ان تكون
وحدها مع الله . ولما يأتيك الناس محتاجين الى روحك وجسمك
وعقلك فانك تقول (قفوا فى اما كنكم فانى ملك نفسى ولست
ملككم) فحبك هذا ليس اكثر من تهكم ألذع لى وانا ابحث عن الله
منه لبطل يحارب ضد العبودية والقتل ! » فقال « هل اقول إذن
(هذه الوصية اقولها لكم معشر المقاتلين) أم ماذا ؟ »

[فقلت « إنى لا أبحث عن وصايا بل أبحث عن الله » ومن ثم قام
« واصلى بحثك إذن والله يرعاك لكن يجب أن تمرى بى أولا حتى
تجديه » ومن ثم اختفى فأسفت لفراقه لأنه رجل طيب »]

وانمت الزنجية الحديث فقالت الريفية للكاتب فى أسف شديد ـ
لقد أخطأت كل فكرة عن الرجل ، ولست وحدك المسئول . فهناك
التبعة الكبرى تقع على من اشتركوا فى كتابة كتب مقدسة لكم من
نتاج عقولهم ، قدموها للأجيال متضاربة الآراء . ولا غرابة فقد فهم

الرجل كل من تلاميذه فهما مستقلا وصوره كما فهم ، ثم تعاقبت الأجيال تتناول كتبهم بالحذف حينا وبالأضافة حينا آخر وبالتشويه حينا ثالثا . ثم حاول القرن العشرين ومن قبله التاسع عشر أن يوحد هذه الآراء فكان تبديل وتغيير ، ليستطاع تقريب الحقائق وتوليفها ليزول منها عيب التناقض .

فقال الكاتب ـ هذا صحيح ولكن الجوهر لم يتغير .

وقالت الريفية ـ كيف لم يتغير ؟ وهل قال لكم المسيح أنه ابن الله أو أن الله أبونا جميعا ؟ لم يقل وانما افتريتم عليه . وما كان الا رسولا كرمه الله برسالته . وهل من المعقول أن يخلق الله أولادا ؟ لكان إذن للأنبياء أو البشر صفات الله وأحواله وأفعاله ! والا فهل يلد المرء عصفورا أو العنزة حملا ؟ هذا مستحيل كما أن نكون أبناء الله وليس لنا من كنهه شيء .حتى أنا لا نستطيع دفع الضر عن انفسنا كما لانستطيع أن نحيا حياة فاضلة كاملة . وأنت تعلم أنه ما من نبى إلا واضطهد ، وما من نبى إلا وزهد ، وما من نبى إلا وصرخ أنه مخلوق كباقى البشر ، غير أنه مقرب عنهم ، مكرم لرسالته . وإن كانت رسالة عيسى قد بدت لك ناقصة ، فقد كانت أصلح شيء لجيله والأجيال من بعده . حتى جاء محمد برسالته ، وقد اختتم الرسل ، فكانت رسالته

صالحة لجميع الأجيال وان لم تختلف فى جوهرها مع أية رسالة أخرى .

وما أن أتمت ريفيتنا حديثها حتى رأت أربعة خيول مطهمة ، ناصعة البياض وقفت أمامهم فركبوا . وحملتهم الخيول إلى مكان فسيح اجتمع فيه ناس كثيرون يلغطون ويسخرون . وهبطت الخيول باصحابنا على أربعة من الكراسى المرمرية اللينة . فلما جلسوا ظنوها عجينا ستلصق بملابسهم غير أنها لم تمسسهم بسوء . وما أن جلسوا حتى سكت الناس جميعا وارتفع صوت جميل جدا أسمعهم الآية الآتية :

« وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل عباد مكرمون »

ارتسمت الدهشة على الوجوه . وضحك القوم الذين أطل عليهم القمر فى هذه الساعة المتأخرة من الليل . وراحو يندمون على ما افتروه . . ونظر أربعتنا حولهم فاذا المنظر قد تلاشى ، وإذا صحراء القبور تبدو حاملة راية العدم والفناء . وأخذوا يتصورون كيف كانوا هؤلاء القوم الراقدين فى الثرى ، أو الذين تفتتت عظامهم وتلاشت لحومهم ، فتكون منها هذا الأديم الذى يطأونه ، والذى صلح لأن يزرع فيه بعض الموسرين رياحين وورودا ، ظنوانها للموتى خير أنيس

وتذكرت ريفيتتنا قول أبى العلاء المعرى

خفف الوطأ ما أظن أديم الأ

رض إلا من هذه الأجساد

واستفسروها معنى البيت . فلما فهموه اضطربوا والحوافى الرجوع ولم ندر كيف وصلوا ولا كيف ناموا ! إنما ندرى أنهم قابلوا فى طريقهم صيادا يحمل على كتفيه كتدرائيه كبيرة . [فجرت اليه الزنجية لتساعده صائحة « حاذر ياهذا . فيخيل أنها ستقصم ظهرك العجوز المسكين » الا ان الرجل أجابها ضاحكا « لا عليك . فأنا الصخرة التى بنيت عليها هذه الكنيسة » قالت « لكنك لست صخرة! وهى حمل ثقيل جدا عليك » وكانت تتوقع ، بين اللحظة والاخرى ، ان تراه مهشما تحت حمله . لكنه قال « لاتخافى فقد صنعت كلها من ورق » . وأخذ يرقص أمامها جاعلا جميع الأجراس تدق بنغمات سارة .

[وقبل أن يختفى عن البصر ظهر بضعة آخرون ، يلبسون ملابس بيضاء وسوداء ، كلها مضمخة بعناية ونظيفة جدا . وكانوا يحملون كنائس ورقية أصغر من الأولى وأقل جمالا . وكانوا كلهم يصيحون على الزنجية قائلين « لا تصدقى الصياد . ولا تصغى لهؤلاء الاخوان . فان كنيستى أنا هى الكنيسة الصادقة » .

[وأخيرا كان على الزنجية ان تتجنب طريقهم . لأنهم بدأوا

يتراشقون بالحجارة . ولما كان غرضهم سيئا كما لو كانوا عميا ، فقد طارت الحجارة على غير هدف حتى ملأت الطريق]

وهكذا شاهد أصحابنا هذا المنظر المؤلم . فانشرح لرؤيته الكاتب وزوجه ، وأسفت لرؤيته البيضاء كثيرا حتى خجلت من نفسها ، ولم يكن من ريفيتنا إلا أن أشفقت على الجميع . وكما أسلفنا فاننا لم يدر حقا كيف نام هؤلاء ليلتهم هذه فى مضاجعهم بالقرية ! وكان نومهم عميقا شبه هنىء . ولم تسط عليهم الأحلام ولا أضغاثها ، ولعل السبب أن الأعصاب كانت جد متعبة ، كما تراخت الأجسام من الجهد فراح الجميع فى سبات نوم عميق .



« ٥ »

ولأمر ما بدت الزنجية فى الصباح التالى مرتدية ثيابا نسائية خفيفة ولكنها تامة ، ورأت الريفية أن تذهب بهم إلى بركة قارون ، حيث يقضون نهارهم فى نزهة مائية لطيفة . ولم تكن البركة لتبعد عنهم أكثر من نصف ساعة قطعوها راكبين حميرهم . ودار الحديث مقارنة بين ما صادفوا فى الأيام الفائتة وبين مخاطرات الزنجية ثم مخاطرات البيضاء وأي الثلاثة أنفع وأقرب إلى الهداية . وكان النصر الأخير لريفيتنا حيث كان الغرض الذى تدافع عنه باهرا واضحا لايحتاج إلى برهان علاوة على ما وهبها الله من حسن البيان وذلاقة اللسان ، وشدة إلمامها بما يلهجون به من قديم الآراء وحديثها . ولما خشى الكاتب أن يعجز أمام تلك الريفية الشديدة المراس قال وهو يعنى الريفية بأكبر قوله « سأقص عليك شيئا لن تستطيعى دفعه ، وهو آخر ما وصلت اليه المدنية ونظرياتها. وما أظنك ستجيدين فهم شغل العلماء الشاغل ومقصد الفلاسفة أجمعين فى هذه الأيام ، لأنك صغيرة والأمر صعب ! »

فأجابته بقولها « سبحان مخلف الظنون ! ومن يدريك أنى أسرع منك فهما وأشد ذكاء ؟ »

وقال الكاتب « إذن فسأقص عليك مخاطرة صعبة صادفتها الزنجية » ولما بدأ يقص حكايته نهق حماره بشدة ، كأنه يحتج على ما سيقول راكبه . وارتجف الكاتب وسقط واقفا على أم رأسه فسر من ذلك كثيرا . ولكن الرحلة كانت أشق من أن تتحمل الفتيات سخف الكاتب ، فهددته الزنجية وفضلت الريفية أن تستبدله حماره الشقى بجملها الهادىء فقبل . وتابعوا السير ، وبدأ الكاتب يقول بعد أن استوحى ذقنه

[قابلت الزنجية جماعة من البيض يسمون أنفسهم (بعثة العجائب) يجولون فى الأدغال الأفريقية . وكان معهم فئة من الحمالين الزنوج سألت الزنجية أحدهم عن القوم البيض فقال لها « إنهم مغرمون بالمراء ، يضيعون وقتهم فى التشاجر على التافه من الأمور ، وهم لا يتناقشون الا لمجرد حبهم فى المناقشة »

وظنت الزنجية أن مبعث عجبهم ودهشتهم هو الله . والا لما سموا أنفسهم (بعثة العجائب) . ولكنهم ما سمعوا منها هذا الكلام حتى استلقوا من الضحك . وقال أحدهم يعلق على قولها « لقد تخلصت بلاد المدنية من هذه الفكرة من زمن بعيد حتى أن شكسبير ، وقد عاش فى القرن الخامس عشر ، كان لا إلهيا » وقال آخر ردا عليه « بل الفضل

الأكبر فى نبذ فكرة الألوهية يرجع الى القرن الثامن عشر ، وهكذا أخذوا يتناقشون و يسردون أنواع الألهة الذين قدمتهم الجمعيات الدينية وخصوصا جماعة البورجوازى Bourgeoisie]

وهنا قالت الريفية فى أسف شديد « إنى أضيق ذرعا بكل هذه الأضاليل ، ولو كانت الجمعيات التى تقولون عنها قد قدمت اليكم عددا مختلفا من الآلهة ، فليس ذلك إلا لأن تلك الجمعيات أخطأت فهم الكتب المقدسة على حقيقتها ، كما حاول كل فريق ان ينال السيادة والعظمة الدنيوية عن سبيل الدين ففسره بما يوافق مصلحته . ومن ثم كان تنابذهم بعضهم البعض ، وكان تضليلهم لعقول الناس ، وكان المجال المتسع لذوى المصالح كى يدفعوا بالناس الى نبذ الأديان . وإلا فكيف يرضى العقل البسيط أن يتصور وجود إلهين أو أكثر فى هذا العالم ؟ لو كان الأمر كذلك ، وكانوا جميعا قادرين . لصار هذا النظام الدقيق المحكم فى تسيير الكون فوضى وتطاحن وشجار . فأن نفيت القدرة عنهم نفيت كذلك عنهم الألوهية . وإلا فكيف يخلقون وهم عاجزون ؟ هذه حقيقة بسيطة تقبل بالبداهة فى يقين حاسم ، ويتلقنها أطفالنا فى المدارس الأولية ! »

سمع الكاتب هذا فقال « إنك ساحرة اللفظ ، قوية المنطق

فارجوك أن تدعينا من هذا . فلست أقول إلا مشاهدة رأتها الزنجية بعينها »

وتدخلت الزنجية قائلة « هذا علاوة على أنى قلت لهؤلاء القوم أن آلهتهم الستة الذين سردوهم على ليس فيهم من أبحث عنه »

وأومات الريفية علامة على الرضى ، ونبهت الكاتب أن يتابع كلامه فقال [بعد أن أنكرت الزنجية آلهتهم الستة ، أخذوا يلومون على المبشرين تعليمهم الزنوج أموراً ليس لها ذرة من تصديقهم ، وأخذهم الحوار حتى قال قائل منهم « لم لا نلق الى القوم بهذه الحقيقة البسيطة ، وهى أن حدوث العالم كان خاضعا لنظام الانتخاب الطبيعى وأن فكرة الألوهية ما هى إلا خرافة ! » فاعترض زميل له على ذلك بأن هذه الفكرة ستؤدى بهم إلى نظرية (البقاء للأصلح) . وتخوف القائل من قوة الزنوج ونظافتهم وذكائهم قائلا أن الزنوج فى نظره أصلح من البيض للبقاء ، فاذا هم أطاعوا هذه النظرية فسوف يكون هلاك البيض على أيديهم .

وأخذ جماعة البعثة يتكلمون ويتناولون نظريات حديثة . يقول أحدهم أن هلاك البشر سوف يكون من شدة البرد لأن الشمس تفقد حرارتها يوما بعد يوم . ويقول آخر وكان عالما طبيعيا ـ بل

الشمس تزداد حرارة كل يوم ، فيعلق ثالث على كلامه بأن الهلاك في كلتا الحالين مؤكد سواء من البرد أو من الحرارة. ثم انتقلوا الى نظرية التطور وإلى الكلام عن العادات الموروثة والعادات المكتسبة وغير ذلك مما يلهج به العالم الحديث من نظريات وآراء ، تزداد على مرور الأيام. وسمعت الزنجية حديثهم هذا فأنشأت توضح لهم بعد نظرياتهم هذه عن الهدى وقلة نفعها ، فأنصت اليها رجال البعثة. ومن ثم بدأت الغيرة تأكل قلب إحدى سيدات البعثة فأهابت بالزنجية أن ترحل وهبت تخرج مسدسها من جرابه لتقتلها به. ولكن الزنجية انقضت عليها بعصاها ، ورمتها على الأرض ولاذت بالفرار]

وانتهى الكاتب من كلامه متوقعا أن يهزأ بريفيتنا ، إن كانت لم تفهم شيئا من كلامه. ولاحظت الريفية بوادر الشماتة تبدو على وجهه فقالت « أغلب ظنى أنك من أنصار كل هذه النظريات ، بل لك يد طولى وباع عريض فى تأسيس بعضها ؟ »

فأجابها فى زهو شديد « ترين أن جميع هذه الآراء مفيدة إن لم يعجز عقلك عن فهمها »

فقالت وعلى وجهها علامات التهكم « عساى أفهم . . من يدرى ؟

وإن أكدت أنى أفهم شيئا واحدا من تلك الآراء فهى أن منطقها فاشل ولن يسير بالعالم إلى الكمال والفضيلة »

قال فى دهشة « لماذا ! ؟ » فأجابته « لأن جميع الأسس الأخلاقية التى تولد من تلك الافتراضات ، تخالف طبيعة البشر أولا وتحاول انتزاع أسسا أخرى متينة متأصلة فى النفوس ثانيا . وكفى دليلا على فشل تلك النظريات فى توجيه العالم إلى الخير ، أنها متعددة وكثيرة لا يستطيع أحدها أن يقوم على رجليه فيطمس الآخرين ، أو يسير فيؤمن به الجميع » . وقال على الأثر « الوقت كفيل بتحقيق ما تبغينه » قالت « ولكن الأدلة المحسوسة والتجارب القائمة على تلك النظريات لا تنبىء بأى خير أو نجاح ، وإلا فماذا فعل الشيوعيون بفلسفتهم ؟ وماذا استفاد العالم منهم حين اتبعوا كارل ماركس وغالوا فى تطبيق آرائه ؟ إنهم يواصلون فى السنين الأخيرة الرجوع على أعقابهم تدريجيا ، والتنحى عن بعض مغالاتهم .. لماذا ؟ لأنهم تناسوا النفس البشرية وأهم عناصر تكوينها ، ووضعوا المادة نصب عينهم ، واللذات المطلقة مطمح أنظارهم . وإلا فقل بالله عليك كيف تناسى أثر عاطفتى الأمومة والأبوة فى تكوين الطفل ؟ إنهم تناسوها ، وانتزعوها فى قوة وإجحاف فاحش من الأطفال . فيشب الطفل لا يعرف له أبا ولا

أما ويعيش حياته منغصا يشعر تماما بشيء ينقصه ، وهو حنان أمه وعطف أبيه . ولن يفارقه هذا الشعور أيام حياته .. طفلا وصبيا وشابا ورجلا وكهلا ، لأنه ليس شعورا عرضيا يمكن التغلب عليه . بل هو حاجة ماسة لا سبيل إلى دفعها لشدة ارتباطها بالنفس . والنفس كما تعلم أهم أجزاء الوجود الانسانى .. وما دامت تعوز النفس أشياء لازمة لها فمن المرجح جدا ومن المعقول أيضا أن تحاول سد هذا النقص ـ وما دامت القوة الغشومة تحول بينها وبين هذا ـ فلا أسهل من أن تتحول هذه الجهود فى سد هذا النقص جهودا فى الانتقام ممن حرموها حقا طبيعيا . وهكذا لا يستغرب أن تصبح الأطفال الذين تربيهم هذه البيئة رجالا تفعم نفوسهم بالشرور والحقد على الانسانية التى لم تنصفهم

فقال الكاتب كأنما يريد التظاهر بعدم المبالاة «هيه . وماذا أيضا ؟»

فأجابته الريفية بقولها «هذا شر واحد من شرور أصحاب هذه الفلسفة . وإن شئت لقلت لك فى تأكيد حازم أنه إن لم تحتط الانسانية لنفسها من هذا النوع من أنواع الحكم الأجرامى ، وتناهضه بقوة فسيأتى اليوم ـ إن آجلا وإن عاجلا ـ الذى تطغى على العالم فيه ألسنة للهب الشيوعى الذى لايرى الا القسوة والعنف سبيلا الى تحقيق مطمحه .. ومع ذلك فما لنا ولهذا ؟ سأسألك سؤالا واحدا تجيب عنه

بنعم أو لا — هل تنكر غريزة الجنس وبما يترتب عليها من حب ؟ »

قال « كلا »

قالت ضاحكة « قلت لك أن تجيب بنعم أو لا ولم أقل أجبنى بكلا »

فضحك وقال « إذن لك ما تشائين .. لا »

فقالت الريفية « ما دمت لا تنكر أثر هذا الحب ، فهل ترضيك حالة الزواج التى استنها الشيوعيون »

قال « إنها أوفق حالة لتحقيق غريزة الجنس التى أوافق عليها وترضينى ، فليس عندهم أسهل من أن يتزوج الانسان حبيبته ، فيرضى غريزته ، ثم إذا ما اعتلت الحالة بينهما وأصبح لا سبيل الى الوفاق ، فلا أسهل أيضا من الطلاق »

قالت « وما الفرق بين تلك الحال وحال الوحوش الضارية ؟ إنها (الوحوش) لا تبغى الا إرضاء الغريزة فى دقائق معدودة ، ثم يذهب كل فى طريقه كأن شيئا لم يكن . وإن تمايز الشيوعيون عن ذلك فى شىء ، فانما هو أن مدة إرضاء تلك الغريزة قد تطول ، فتصبح ساعات أو أياما أو شهورا . أينت إذن الفضيلة وأين سمو المثل العليا ؟ كلها معدومة مادام الانسان قد رضى لنفسه أن يتناسى الأحقاب الطويلة ، والقرون العديدة التى قضاها فى مدنيات تبعده عن حياة

الحيوانات قدر المستطاع ! وعلاوة على ذلك فقد فقد الانسان — نتيجة لمثل تلك الحالة — الاطمئنان وراحة البال والهدوء البيتي . فلن يتفرغ شخص إلى عمله فقط يتقنه ويزيد في نمو وتقدمه ، بل ستيقرن عمله الخارجي دائما بعمل آخر ، يستلزمه إرضاء هذه الغريزة ، وهو في مصنعه ومتجره ووظيفته يفكر ويفكر ، ويضيع أكثر وقته في التفكير هل يطلق تلك ويتزوج هذه ! أم يحاول إيقاع امرأة في حبائله ويرغم من تحبه على الطلاق !. ولا يخفى ما في هذا من وحشية شاذة عقيمة ، وتفكير جنسي يعطل الأعمال كما يضر بالصحة . »

ولم يسع الكاتب الا أن يقول متهربا « دعك من كل هذا ، فانك تعيشين في عالم خيال وأوهام . وأغلب ظني أن ستصبين على دينهم أيضا جام غضبك ! لكني أحب أن أسمع فهات ما عندك لأن كلامك يسرني ويسرى عن نفسي . »

فابتسمت رفيقتنا حين قالت : إن كنت تسر لكلامي فذلك بالرغم منك . لأن هذا الكلام يثير في نفسك انفعالات وإحساسات كنت تكبتها وتحاول إخمادها . أما إني سأصب جام غضبي على دينهم هذا فصحيح . لأني لا يسعني إلا أن أضحك من قوم يعبدون الدولة ! ومع أني لا أنكر ما للوطن على بنيه من حقوق وواجبات حقيقة

بكل حب وتقدير ، واحترام وتضحية ، إلا أن هذا الوطن ليس كل شيء في حياة الانسان . فما سمعت إنسانا ادعى أن وطنه قد خلقه ، اللهم إلا إذا استعمل كلمة الخلق بصفة مجازية . كما أن الحياة في الوطن ليست كل ما يتطلبه شخص له ذرة من التفكير . لأنه إن فعل أنكر حياة الآخرة ، وأصبحت الحياة الدنيا لهوا وعبثا لا مبرر لهما . وعلى هذا فأي الأمرين أحق بالعبادة والتقديس : الله الذي خلقنا وتتوق نفوسنا الى عالم النعيم والسعادة الذي وعدنا به ؟ أم الوطن الذي ربانا وهيأ لنا العيش بين ربوعه ؟ أظنها بداهة أن نعبد الله وندين بوجوده الأزلي ! والفرق بين الاثنين واضح لا يحتاج إلى برهان »

فقال الكاتب بعد أن خاف طغيانها عليه « أوه . كفى هذا ، فان مجال نقد الشيوعيين واسع ، كما أن السخط عليهم لا تخلو منه جهة . فكفى عنهم وحاولي إن استطعت هدم نظريات أخرى »

فقالت وهي تضحك « هون عليك . ليتك طلبت شيئا عسيرا ! أظننت أنك حصرتني الآن بين الماء والنار كلاهما مهلك ؟ كذب ظنك . ماذا جنى العالم من نظرية نيتشه أو كما تقول نظرية (البقاء للأصلح) ؟ لقد دفع الألمان الى الأخذ بها . وملأهم الغرور بأنفسهم حتى اعتقدوا أنهم أصلح شعب للبقاء ، وأنهم يجب أن يسودوا العالم

فماذا كانت النتيجة ؟ كانت أن استعرت حرب كبرى ، أو بجزرة كبرى أو طاعون مكتسح أو سمها كما شئت حرب سنة ١٩١٤ . وكان أن أزهقت أرواح الملايين ، وكان أن عطلت الأعمال ، وكان أن تحكمت الأزمة بالعالم بعد الحرب حتى لتوشك تلك الأزمة أن تجرنا إلى حرب أخرى ، أساسها المجاعة وعدتها أشد فتكا وأفزع تدميرا . هذا بعض ما كان من أمر الاندفاع وراء (البقاء للأصلح) علاوة على ما فى تلك النظرية من نقص خلقى شنيع . يحرم التضحية ويشوه المحبة ويقتل الشفقة ويذهب بكل عاطفة نبيلة . حتى ليخيل الى أن من يمارس هذا الرأى السقيم ويؤمن به ، فلا فرق بينه وبين قبائل نيام نيام . فهؤلاء يأكلون مرضاهم وأولئك يقصفون ما يسمونهم ضعافهم وإن كان هناك فارق بين القومين فهو أن البيض يأكلون بالشوكة والسكين حين يأكل الآخرون بأصابعهم لحوما نيئة . أو أن البيض يرتدون الملابس والسود لا يرتدونها ! »

ولما رأى الكاتب أنها انطلقت بنفس القوة التي هاجمت بها الشيوعيون صاح فيها قائلا « كفى .. كفى .. أظننا قد وصلنا الى البركة (ثم أشار) أليست هذه بركة قارون ؟ » .

والتفتت الفتيات الثلاث والكاتب . فرأوا البحيرة هادئة ساكنة

لا يبدوا على سطحها الا بضعة قوارب متناثرة . تلوح على أبعاد مختلفة وكاد الوقت أن يكون ظهيرة . ففضل أصحابنا أن يستريحوا على الشاطىء قليلا ثم يتناولوا طعامهم . وترجلوا عن حميرهم يتبادلون أحاديث عادية ويتفيأون ظل شجرة باسقة حتى ألح عليهم الجوع . فمالوا على الآنية والحقائب يستخرجون مابها من طعام شهى . وداعبهم الطعام وداعبوه حتى أتوا عليه معتدين ! وما كان لهم من حيلة وقد قيل إن الجوع كافر ! وكذلك قيل إن المعدة ملحة ! ولكن ما ذنب الطعام المسكين فى كفر الجوع وإلحاح المعدة ؟ قيل والعهدة على الراوى ، أن الطعام يرى فى دخوله المعدة أكبر حظ من حياته . كما يرى الحجاج فى دخول الحرم أكبر حظ من حياتهم . .

ما علينا . فان المهم أنهم أكلوا ، لكنهم لم يستطيعوا الشرب من البركه لأنها مالحة ! لكنهم لم يعدموا ماء يرويهم من (زمزمياتهم الاحتياطية) وهكذا أنقذهم الله من شر وقوف اللقمة فى الحلق ! وناموا فى الهواء البليل زهاء الساعتين ، تحت الغمام الخفيف المتناثر فى السماء الذى لطف من حرارة الشمس كثيرا . كما كان يخفى أشعتها فى سيره ويبديها كأنهما فى دعابة حلوة مستمرأة .

واستأجروا قاربا يتنزهون به على سطح البركة الراكدة ، لترويح

النفس واجتلاء المناظر الآخاذة من تكوين الطبيعة . وبدا للزنجية أن تسأل الريفية فقالت « أليست هناك إذن فلسفة تستطيع أن تجتذب غالبية البشر وتسيرهم نحو السعادة ؟ »

فأجابتها الريفية وهي تميل بالدفة الى قلب البركة « لك من أصول الإسلام خير فلسفة تقود العالم الى هداه ، وتودي بجميع آفات المجتمع »

فضحك الكاتب وقال « لقد كان إذن على الناس أن يأخذوا الإسلام دون قيد ! يافتاتي انه شيء قديم لا يصلح لروح العصر »

قالت الريفية تسخر منه « أما ان الإسلام قديم فهذا صحيح ، وأما أنه لا يصلح لروح العصر فهذا كلام يستحيل إقامة الدليل عليه .. »

فقاطعها قائلا « أيبيح الاسلام للعلم مثلا أن يسير فى طريقه دون حرج ؟ » فأجابته « تلاحقه » لا أظن أنهناك دينا يتآخى مع العلم تماما أكثر من الاسلام ، بل هو — اكثر من ذلك — يستحث البشر أن يتفكروا فيما يبدو لهم من مسائل ، ويتبصروا فيما حولهم من كائنات ومعضلات ، إنما يحرم الاسلام أن يضل العلم على أثر عجز العقل عن تصور الغيبيات . فتكون النتيجة شركا بالله . لذا يجب على المتفكر أن يكون عالما راسخا نزيها يمشي فى خطواته بحذر ، فان خاف السقوط فلا أسهل من أن يحجم »

وهنا انفلق الماء وأخذ القارب يهوى في عمق كبير . ولم تبعد الهوة ثانيتين بدتا للأربعة كأنها شهرا كاملا . واستقر القارب بهم على زهرة كبيرة بيضاء تشبه في صورة مكبرة زهرة اللوتس . وقد قامت على حواف الزهرة حوائط من الخشب البني يلمع لمعانا غريبا . ولما تابع أربعتنا هذه الحوائط ببصرهم إلى أعلى ، رأوا كأن رافعة أهبطت ذراعها في رفق ، وأمسكت بالقارب ورفعتهم إلى ثلث الحائط تقريبا حيث انفتح باب جميل خرجت منه لوحة خشبية ناصعة ، عليها ماء كثير هبط عليها القارب وسار بهم وسط حدائق غناء . حتى وصل إلى فسقية مرمرية لينة ، وقفت عليها ثلاث حسان يتساقط الماء من أناملهن أبيض كاللبن ، وله رائحة المسك . ورأوا على سطح ماء الفسقية مناظر طبيعية في منتهى الجمال ترسم وتختفي ؛ وهي مناظر لجميع الكائنات المعروفة وأخرى غير معروفة . واستقر الحال هنيهة . ثم ظهر على سطح الفسقية لوحة من مخمل أخضر كتب عليها الآيات الآتية بالذهب الخالص :

« أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب »

واختفت تلك اللوحة وحل محلها لوحة أخرى حملها نوع من الكائنات أقرب شبها بالملائكه . وقد كتب عليها الآيات

« أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الارض كيف سطحت فذكر إنما أنت مذكر »

وكأن شيئا من هذا لم يحدث ، ورأو أنفسهم على سطح البركه فى قاربهم يجدفون ، فابتسمت الريفية ابتسامة فخر وانتصار ثم قالت للكاتب « هلا رأيت .. جمع الله فى آية واحدة بسيطة ، بضع كلمات معظم علومكم . علم الحيوان والنبات والجغرافيا والفلك والجيولوجيا وغيرها . ثم لم يكتف بذلك . فحث الانسان صراحة لأن ينظر ويتبصر ويتفكر » وهز الكاتب رأسه أسى وكمدا لأنه فشل هذه المرة فى المغالطة .

وقالت الزنجية تتساءل « هذا كله جميل . بقى أن نعلم عن تشريع الأسلام ؟ »

فأجابتها الريفية « تعلمين أن أهم آفات البشر الآن هى التسول والعمال العاطلين واللصوصية فلو أن القوم انتهوا إلى تشريع القرآن فى مسألة الزكاة ، لكان عنصرا هاما فى هداية البشر الى حلول معقولة

فعالة . وقد استنت فعلا بعض الحكومات شيئا من هذا القبيل ، بان فرضت الضرائب على الدخل . وهذه أيضا المذاهب الاشتراكية ونقابات عمالها تسير على شيء مشابه فتأخذ للعاطل من القادر !

وإنى لأعتقد أنه لو سادت القناعة وحلت محل الشره الى المال فى النفوس ثم سار العالم على مسألة الزكاة ، وتنبه لحكمتها ، لقطع الناس شوطا كبيرا فى سبيل السعادة البشرية . ولم تقع عينك على متسول أوْ طالب قوت أو لص ؟

فقالت الزنجية « أبمثل هذه الزكاة يأمر الله ؟ هذا جدير بكل عناية وتقدير . »

ثم قالت الريفية « وبا كثر من هذا يأمر الله ! فهناك سؤال بسيط هل تستطعين تمييز اللص أو النشال فى هذه الأيام عن الشخص المحترم »

أجابت الزنجية « كلا . . فان كلاهما يلبس أحسن الثياب ويرتاد أكبر الأماكن ويركب أفخر العربات وكأنه مليونير عظيم »

« فقالت الريفية « حسنا ! ومن المرجح أن يكون مثل هذا الشخص قد حكم عليه عدة مرات فلم يرتدع . لماذا ؟ لأن العقوبة لم تكن رادعة كما لم تؤسس علىْ علاج النفس . ولو أن مثل هذا الشخص قد قطعت يده أول مرة ثم قطعت الثانية فى المرة الثانية كما أمر الله ، لأمكن

الانسان أن يفرق بين الباشا واللص بهذه العاهة الجسمية الظاهرة ؟ ولكان للمجرم - فى احتقار الناس له ومجانبتهم إياه - خير رادع نفسى وأكبر جزاء يسلمه إلى الندم فالتوبة .. كذلك هناك أمر مشابه فى حكمه وهو رجم الزانى والزانية . فأن مجرد هذا الرجم أمام الملأ عظة لغيرهما وأى عظة ، وإصلاح لنفسيهما وأى إصلاح . ولكانت راحة العالم من وراء انعدام البغاء لا تقدر : فلا أمراض ولا مصروفات تثقل كاهل الدولة ولا نسل ضعيف ولا أزمات زواج ولا .. إلى آخره . هذا يا عزيزتى قليل من كثير فى تشريع القرآن . هذا التشريع النافع والعلاج الناجع ولا غرو فليس أحق من خالق البشر كى يشرع لهم . هو الذى جعل النفس ويعرف مدى رعونتها كما يعرف كيف يحكمها ! لاشك أن تشريعه يكون أوفق تشريع وأكثره ثباتا ونفعا ! »

وهنا صاحت الزنجية « لقد وجدت الله . قد اهتديت اليه .. كفى فسبحان من خلقنا ! »

وتبعتها البيضاء تقول « لقد عرفت الله اكثر من ذى قبل وقد اهتديت هداية كبرى . فسبحان من خلقنا ومن سيبعثنا من جديد ! »

ولم يسع الكاتب إلا أن يشير بالرجوع إلى المنزل إذ كان لا يزال

فى جعبته سهم آخر وعد الريفية أن يوافيها به مساء . وأقلوا راجعين مع الغروب . ووصلوا الى جامع صغير بالقرية عند خروج الناس من صلاة المغرب . وشاهدوا هذا المنظر الساذج الرائع فى هذا الوقت الجميل الفاتن . فقالت الزنجية تشير على المصلين

« ما أجمل هذا التآخى والخشوع ! إنه لعمرى كفيل بأن يحل المحبة بين البشر محل النفور والجشع . وبأن يزرع التواضع ويقتلع الوحشة والكبر . فيساعد الأخ أخيه ولا يرد حاجة لذويه »

وأبدت الزنجية رغبتها فى الصلاة . فلم يلبث أصحابنا بالمنزل أكثر من نصف ساعة تعلمت فيها الزنجية الوضوء والصلاة ، حتى كان العشاء قد جهز فجلس الجميع يتناولونه بشهية حلوة . وشكى الكاتب مغصا بعد الأكل فأرادت الريفية أن تسليه . وطلبت إلى أبيها أن يحضر أحد مشهورى القرية فى إلقاء المقطوعات والمواويل فحضر . وجلس مع الأب وبعض الضيوف فى الطابق الأسفل . وسمعه أصحابنا ينشد من الطابق الأعلى . وكان الفتى وخيم الصوت قد قهره حب ساذج قوى ، ففتت قلبه قطعا يصوغ منها لآلىء مواويله. كما هى عادة الفلاحين

وهكذا أخذ أصحابنا يسمعون فى هدوء الليل حتى غلبهم نعاس لذيذ فناموا فى أماكنهم .

« ٦ »

وقيل إنه مسجد فخم ، وقيل بل رياض غناء للأطفال ، وقيل بل مدرسة نظيفة عصرية تبعت القواعد الصحية فى بنائها ! والحق أن هذا جميعا صحيح

فنحن الآن فى سنة ١٩٤٠ . ولا ندرى ما الذى جعل أصحابنا الأربعة يشعرون أنهم فى هذه السنة من القرن العشرين ، ما بين ارتخاء الجفن وارتداده ؟ أهي معجزة ، أو سانحة من التفكير ، أو شاردة من الخيال يعبرون عنها بحلم اليقظة ؟ أغلب الظن أنها الأخيرة هى التى جعلت أصحابنا يشعرون أنهم فى سنة ١٩٤٠ . وهى التى سبحت بكيانهم الى هذه السنة البعيدة . وهى التى خيلت اليهم أن وزارة الأوقاف قد نفضت عنها غبار التكاسل ، وهبت الى المساجد تصلح من شأنها وتزودها بكل حديث نافع ، جذاب محبب . فجعلت حول كل مسجد مهم حدائق جميلة يرتع فيها الأطفال ، وجعلت لهؤلاء الأطفال مربيات يعنون بنظافتهم . وألحقت بكل مسجد كبير مدرسة من نوع رياض الأطفال ، جعلت فيها مربين ومربيات يلقنون أطفالنا أصول العلم والدين . وأقامت فى كل مسجد آلة للراديو ، تستقبل إذاعتها من الأزهر

حيث يؤذن كل ذى صوت جميل ، وحيث تذاع الأناشيد الدينية والقومية الدقيقة التلحين .

وشعر أصحابنا الأربعة أنهم وصلوا الى هذا المسجد قبيل صلاة الجمعة . فما هى الا لحظة حتى هرع الناس أجمعين الى الداخل ، رجالا وأطفالا . وذهبت النساء الى مكان من المسجد خصص لهن . وأقيمت الصلاة فصلت الريفية والزنجية والبيضاء . وصلى الكاتب على مضض !

وبعد الانتهاء خرج الناس أفواجا متآلفات ، يسلم بعضهم على البعض متمنيا أن يجمعه الله وغيره فى الحرم . وعجب الكاتب من هذا التآلف والترابط اللطيف فى الشعور بين المصلين ، وهم من جميع الطبقات . ولم يسعه إلا أن يعجب فلم يكن له حيلة أمام هذا المظهر الرائع سوى العجب . وسار الأربعة الى مكان جميل من حديقة المسجد ، فسمعت الريفية الكاتب يتمتم

[إن الكتابة نافعة .. فقد أوحى الى أن أكتب كثيرا من الفصول تتضمن كلام الله عز وجل . لكن هناك ناسا فى هذا العالم لا يمكن أن نتوقع أن الله يشغل نفسه بهم . لأن كلمته عندهم لاشىء ؛ وعلى هذا فان الوحى تخذلنى عند مجابهة هؤلاء القوم . ومن ثم أعتمد على سرعة خاطرى الشخصية . فأكتب لهم القصص المفزعة عن يوم

الحساب وعن الجحيم الذى سيصلاه العاصون الى الأبد . وبجانب هذا فأنى أقابل هذه الصور المرعبة بصور خلابة عن الجنة التى وعد بها المؤمنون . مثل الجنة التى تغريهم . أفاهم أنت ؟ جنة ذات حدائق وعطور ونساء جميلات]

وعند ما وصل الكاتب الى هذا سألته الريفية فى دهشة « ماذا تقول ؟ ما هذا الذى تتمتم به ؟ »

قال وقد أفاق الى نفسه « هذا ما قاله العربى الجميل للحاوى عند ما قال له الحاوى أن رسالته رسالة كلام لا كتابة .. وقد سمعت الزنجية هذا الكلام فى إحدى مخاطراتها . »

فقالت الريفية على الفور « ألا زلت تقول الحاوى ؟ ياشيخ اتق الله . إنك أخبث من رأيت . ثم كيف تزعم على العربى أنه يكتب ؟ وبأى دليل تفترى عليه تأليف القصص . أغلب ظنى أنك الوحيد الذى قلت أن محمدا يقرأ ويكتب فى حين أن العالم أجمع وتواتر الأخبار التاريخية الصحيحة لا تقبل الشك فى أن محمدا كان أميا .. ثم إن هناك أمورا يجب أن تعرفها معرفتك بربط الكرافته . وهى أن محمدا العربى لم يقل قط أنه اخترع حرفا واحدا مما نزل عليه وحيا . وإلا فهات دليلك ! كما أنه مما لا يقبله عقل ان يكتب امرؤ شيئا — إن استطاع

الكتابة — ثم يعزوه الى غيره ، والا لكان ملاكا فى التضحية ! ومحمد كما يعلم الجميع لم يكن سوى إنسان . هب أن برنارد شو كتب قصة كما يفعل دائما فهل تعقل أنه ينشرها او يسمح بنشرها خالية من اسمه علاوة على وضع اسم غيره عليها ؟ »

وهنا شهق الكاتب شهقة عميقة وقال بلهفة « ! آه كيف يكون هذا ؟ هذا مستحيل . ومعناه ، إن حدث ، ضياع المال الكثير والاسم الكبير والعظمة التى تتمتع بها ! »

فهدأته الريفية بابتسامة وقالت « لا تخف . لا تخف لن يحدث مثل وإنما كان على سبيل التشبيه . والآن فكيف بمحمد يكتب شيئا ثم ينسبه إلى غيره . خارقا جميع قوانين النفس البشرية الطاعة ؟ قد اتفقنا على أن ذلك غير معقول بالمرة . علاوة على أن ما أوحى به الله له من القرآن لا يزال إلى الآن معجزة اللغة العربية . فان كنت تفهم العربية لظهر لك صدق ما أقول . ولظهر لك أيضا أنه ما من بشر ينطق بلغة الضاد طوال هذه السنين الألف وثلاثمائة وإثنتين وخمسين ، استطاع أن يكتب آية واحدة من آياته أو يجىء بمثلها أو أقل منها قليلا . فلو أن محمدا هو الذى وضع القرآن لأمكن للكثير من البشر فى السنين المتعاقبة ، أن يأتوا بمثل إعجاز هذا الذى تزعم أن محمدا قد ألفه . فان

العبقرية لم تعدم من العالم . ولم يختص بها محمد وحده إن كان زعمك هذا حقا . والدليل أن عندكم الكثير أمثال شكسبير بل الكثير ممن هم أحسن من شكسبير . كما عندكم الكثير بل الكثره الممقوتة من أمثال برناردشو . وليس عندنا الكثير أمثال محمد . وليس عندنا سوى محمد واحد . لماذا ؟ لأن محمدا لم يكتب شيئا من عندياته . ولو كان قد فعل لكان عندنا الكثير من أمثال محمد ! فلا بد إذن من ان هناك شيئا خارقا ، شيئا فوق طاقة البشر ، شيئا موحى به ، شيئا معجزا ! »

وقال الكاتب على الأثر « إنى لا أعرف لغة العرب فمعذرة . ولكن هناك مايدعو إلى ان يعيش الناس دون إيمان بالله او بدين ما . ما المانع ؟ »

فأجابته قائلة « سل نفسك وانت حزين أو مهموم ، سلها ما الذى تطمئن اليه فى هذا الوقت ؟ إنها لاشك سوف تطمئن إلى عقيدة ثابتة إلى إيمان بشىء تجله وتقدسه ، إلى قوة تحن اليها ولا تبغى عنها حولا . وليس من ينكر هذا الاستقرار والشره النفسانى إلى الايمان . فإن الايمان شىء فطرى جبلت عليه النفس البشرية وصيغ معها ككتلة واحدة والا فالنفس ثائرة ، والنفس حيرى ، والنفس غير مستقرة ، والنفس مستفززة ! لأن الايمان شىء مكمل لحياة النفس ، هو خلجة قوية

مكملة لحياتها، ومظهر رائع من مظاهر الحياة الروحية. علاوة على أن الايمان قديم جدا عرفته الأجيال جميعها. فمن مؤمن بصنم الى مؤمن بالشمس الى مؤمن بالقمر الى مؤمن بالكواكب وهكذا. وفى عصرنا الحديث تجد المؤمن بالعلم بجانب المؤمن بالله. ومادام هذا النزوع من النفس الى الايمان بشىء، وما دام هذا الطيران الى التمسك بعقيدة والاطمئنان الى قوة، فمن باب أولى أن يؤمن الانسان بالقوة التى ليس بعدها قوة ولا قبلها قوة، ومن البديهى أن يعتقد الانسان فى أكبر ما فى الوجود وأعظمها وأجلها. ومن أكبر من الله وأجل وأعظم؟ الله الذى خلق الجميع، وأوجد الكل. لابد أن ندين بوجوده ونعبده ونقدسه. لأنه هو الذى خلق النفس. وخلق النفس وخلق فيها هذا الحنين الملح الى الاطمئنان الى دين. فبداهة أن يكون هذا الدين هو وجود الله والاعتراف برسله والعمل على تنفيذ أوامره. هذا هو أقوى الايمان وأشده اتصالا بالنفس، وأكثره رحمة بها وراحة لها.»

وهز الكاتب رأسه علامة الرضى. وقام مع الفتيات الثلاث الى غدير صغير يجرى فى حديقة المسجد. يسرحون الطرف فيه، فيجتلى منه أروح الجمال العلوى للنفس، وألذه للعين ...

وانتهى الحلم الجميل ، وانكمش خيال أصحابنا داخل دائرة من التفكير الصحيح فيما ذهب اليه الخيـال . ثم شعر الجميع أن ما حدث قد ملك عليهم مشاعرهم ، لأنه كان فى أذهانهم أقرب الى الحقيقة منه الى الحلم .

ورأوا أنفسهم فى حجرة الطعام حيث تناولوا العشاء فى نفس الليلة من سنة ١٩٣٣ وكان الكاتب مشعلا سيكارته ، فوجد أنها لاتزال ترعى . وارتج عليه الأمر ، وتملكته حيرة شديدة بين ان يصرخ يائسا ، أو يتفكر فى الأمر بأمعان . ولما كان الحديث الذى سمعه من الريفيه اثناء تلك السنة من الحلم أقرب الى تصديقه ، وأبعد من أنكاره وأكبر من ان يكون وهما ، قام الكاتب الى غرفة مجاورة اختلى فيها بنفسه ليفكر فى الأمر بامعان !

وبينما هو يفكر مرت على ذاكرته صور ناطقة متعاقبة ، لكل ماحدث منذ أن قابل هذه الريفية ، وتعاقبت عليه أيضا صور سريعة لكل مالقيه مع تلميذته البيضاء وزوجه الزنجية . وأخذت هذه الصور جميعها تظهر ثم تختفى فى درجات تختلف وضوحا وغموضا . وكان أكثرها وضوحا صور حوادث الريفية وكلمات الريفية ، وظن أنها

أكثرها وضوحا وجلاء لأنها كانت أقرب المخاطرات كلها الى ذاكرته سيما ولم يمر عليها أكثر من خمسة أيام ، بل لم يفته من آخرها إلا فى نفس هذه الليلة ، وقبل هذا الوقت ببضع دقائق فقط . ومن ثم أخذ يحاول دفع هذه الصور المسيطرة على حسه ، ويكد ذاكرته فى أن تظهر له مخاطراته مع الفتاتين الأخرتين ، أكثر إيناسا ووضوحا ، وأقل وحشة ونفورا . وكان له ما أراد بعض الشيء ، كما كان عليه أن يصدق شيئا . فكانت حيرة أخرى نحو أى الجانبين يميل .

ومال عقله إلى جانب الريفية بالرغم من كل الجهود التى بذلها كى يقصى عنه تأثيرها ، بل كى يسفه أقوالها أو يجد بابا للمعارضة . لكن شيئا من هذا لم يحدث . ولما كان قديمه عزيزا عليه ، وليس من السهل على أى إنسان أن يفقد أشياء بذل فيها مع قرنائه جهود الجبابرة ، فان الكاتب لم يرد ان يطلق آراءه كلية بلا رجعة ، بل فضل ان يفكر فيها مرة أخرى اذا ما اتيحت الفرصة . وحيث لا يكون أثر لأقوال الريفية على نفسه . هذا بالرغم مما لمخاطرتها معه من حظ كبير من تصديقه العقلى النزيه . ومن ثم دخل عليهن الحجرة وفى نيته أن يصلى .

أما البيضاء فأنها عرفت الله اكثر من ذى قبل . وكان لها من تصديقها الريفية خير معين دفعها الى احترام دينها الأول والاعتراف

بوجوده . حيث ان من انزل الدينين واحد .

وشعرت منذ اللحظة بشعور عميق لذيذ . هو إطمئنان وهدوء ، واستقرار وايمان . وقد غمر هـذا الشعور نفسها بفيض من الغبطة الهنيئة ، كما ملأ قلبها محبة لكل خير .

ولاذت الزنجية بالريفية تلح عليها فى لهفة ان تلقنها الكثير ، وتعلمها الكثير . إذ كانت جد شغوفة بدينها الجديد ، وبتوصلها الى معرفة الله معرفة صادقة لا تخالف طبيعتها فى شيء . وكنت تراها دائبة على الصلاة ، دائمة ذكر الله . وقد طغى على حياتها شعاع قوى من نور أزاح عن الأشياء ما كانت تراه عليها من غموض ، وأفعم قلبها إيناسا وراحة .

وجذلت ريفتنا واغتبطت . وراحت تشكر الله كثيرا كما ازداد أملها فى رحمته كثيرا . حتى اذا أضحى النهار شعرت بحركة غريبة فى المنزل . ولما استفسرت عن الأمر علمت ان أخاها الدكتور قد اتاهم فى زيارة قصيرة تتعلق بمسألة زواجها من شاب متعلم له من علمه وكفاءته كل ثروته ، وله من طيبة سريرته كل مؤهلاته لديها . ولما استشارها أبوها فى الأمر ، يقول لها فى تلميح ظريف ان المهر الذى

قدمه صغير ، لم تعر ذاك التفاتا .. وكل ما اشترطته هو ان ترى خطيبها شخصيا .

وكان الأب عاقلا لايرعى التقاليد القومية فيما يختص بمسألة المهر ، ولايتبع سوى الدين الحنيف . وبعد يومين حضر الخطيب ، وفى نفس اليوم اكل مع خطيبته وأهلها وضيوفها . وبعد الغذاء عقد للعروسين ، وهنأهما الجميع . وسادت الغبطة الشديدة على الجميع . .

انتهى



مخاطرات الفتـــاة البيضاء فى بحثها عن الله

بقلم

هربرت شارلس ماكسويل

ردا على برنارد شـــو

« ١ »

— « أين الله ؟ » هكذا سألت الفتاة البيضاء الكاتب المسرحى (الدراماتيكى) الذى كثيرا ما كان يلقنها العلم فى ظرف

فأجابها « سأريك إياه وسـوف ترين أنه ليس ايضـا موجودا هناك »

كان الكاتب ايرلنديا متناقض الأفكار، تحولت ذقنه الحمراء الى البياض على أثر زواجه بالفتاة السوداء التى كانت تبحث عن الله فى الغابة وكان مغرما بالعزق فى حديقة الفيلسوف . ولـكنه كان أكثر غراما

ملاحظة : ـ رأيت بعـد أن قارب الـكتاب نهاية طبـعه أن ألحق به ترجمة حرفية لكتاب ما كسويل هذا إتماما للفائدة

بالوقوف على أم رأسه (بدل الوقوف علي رجليه كالعادة) أمام الناس وهذه الرغبة قد شرحها فى لذة غريبة مستر بيربوهم Beerbohm . فاذا سئل لماذا يفعل ذلك ، أجاب بأن ذلك الوضع صحيح حقا . وأن جميع الناس الآخرين اخطأوا حين يقفون على أرجلهم ! وقد يشير أيضا أن كثيرا من الناس كانوا على استعداد لأن يدفعوا مالا كثيرا كى يأتوا ويشاهدوه واقفا على أم رأسه ! وأنه ما كان ليفعل ذلك إذا كان مرتاحا الى الوقوف على الطريقة المثلى !

وفى مرة — لما وقف على رأسه وشرح كيف كان الناس عقلاء ورحيمين حين اتهموا فتاة صغيرة تدعى چوان Joan لما أحرقت حية — أعطاه كثير من الناس كمية كبيرة من المال ؛ لقد شرح ذلك جيدا . والأشياء التى قالها كانت حقا تستحق النقود التى دفعوها .

بعد ذلك بقليل أخذ تفاحة . وبعد أن وقف وقفته المحبوبة على تلك المصطبة الغريبة ، أخذ يشرح للناس أنه فى حين أن الاشتراكية لايشك أحد فى أنها على حق ، وأن الملكية على باطل ، إلا أن الملك باستطاعته أن يكون حاكما اشتراكيا احسن من الأشتراكى المصوت له . ولقد أزعج هذا الكلام بعض أصدقائه الاشتراكيين الذين لم يزعجوه مطلقا ولم يتعرضوا له . وخصوصا لما أعطاه أناس كثيرون

مبلغا كبيرا من المال على هذا الكلام !

وبعد هذا بقليل أيضا اتخذ الوقفة نفسها ليقول عن الناس والأشياء آراء بلغت من حقيقتها حدا أصبحت به جيدة ! ! ولقد سر هذا قليلا من الناس ـ لا كثيرا منهم ـ حتى سمى المجهود فى هذه المرة ثلجا سريع الذوبان . وقد تكون هذه التسمية هى السبب فى ارتحاله إلى أفريقيا حيث الحرارة كافية لنسيان الثلج . ولعلها أيضا السبب فى العزم على الاستراحة من كتابة الروايات المسرحية الى كتابة القصة بدلا منها !

ولقد تعلمت الفتاة البيضاء كثيرا من الحقائق على يديه وأعجبت بالمهارة التى يناقش بها وبالآراء المستملحة التى قالها عن الناس الذين أراد إصلاحهم ! ولكنها تشككت فى أن بعض الحقائق التى ذكرها قد كانت جيدة جدا حتى أصبحت من الجوده بحيث انقلبت حقيقة !

فسألته الفتاة مرة ـ « ولكن أليس وقوفك على أم رأسك عملا شاقا ؟ »

فكان رده عليها ـــ « ولكن ما العمل وإن لم أفعل مت جوعا ؟ إنى حين أفعل ذلك أصير معروفا لدى الناس . وهذا يضمن لى طريقا رشيقا أعيش منه . إنى أقف على رأسى فى حين أن بعض الفنانين

يبرزون أفكارى للناس عن طريق فنهم ! والناس يعتبروننى مثلا أعلى لكتاب الدرامة المتناقضين ويقولون ما أعجب هذا الرجل ! ولكننى لا أقبل دراهم وملاليم كالحاوى . لا . لا بد أن يدفعوا خمسة عشر شلنا أو جنيها للوقفة الواحدة . ونصف جنيه أو إثنى عشر شلنا وستة بنسات للملابس . إنهم يدفعون نقودهم ويضحكون على نكاتى ولكن قليلا جدا منهم من يأخذ بنصيحتى الحسنة ، أو يصغى إلى حقائقى الدرامية . إنهم يستمرون فى طريقهم جهلاء قاسين ضعيفى النفوس وهذا يجعلنى أشعر أنى أرقى منهم . والمهم أنهم يدفعون لى كثيرا من المال ! ! »

وهكذا أخذت الفتاة البيضاء عصاتها وتبعت الكاتب إلى الغابة يبحثان عن الله وأخذت أيضا كتابها المقدس لكى تقارن نظرياته البالية ومعتقداته بالحقيقة التى سوف يكشفها لها الكاتب . فأتيا مكانا حيث قابلت الزنجية المامبا فقال الكاتب

« بالقرب من هنا ستجدين إلها مزيفا . سيغضب ويحنق إذا لم تذبحى ابنك أمامه فى الحال كضحية ! لأنه يحب رائحة الدم الطازج فإذا قلت أن ليس لك ولد . قال اذهبى وفتشى عن أبيك يذبحك أمامى ! فغضبت الفتاة كثيرا . وهيأت عصاها جيدا استعدادا لمهاجمة هذا

الأله القاسى إذا ماصادفته . وأومأ اليها الكاتب أن تتبعه . وقادها إلى كومة من الحجارة حيث جلس الأله الذى تحدث عنه على عرشه . ولشد ما دهشت حين توسمت نظرة حزينة ورقة وحنانا تبدوا على وجه الأله . وفتاتنا رقيقة العاطفة بالرغم من أنها شديدة اللسان . فصعدت اليه تسأله عن سبب أحزانه فأجابها قائلا :

« أنا محزون لأن عبيدى يقعون فى تلك الأغلاط المحزنة نحوى ولأن هذه الأغلاط تجعلهم يعملون أعمالا قاسية . فهم يريدون أن يذبحوا أولادهم . والناس يتعلمون الأشياء ببطء . ولا يستطيعون استساغه أكثر من نظرية واحدة فى وقت واحد . والآن سأعلمهم أن الأله الحق لا يبغى مثل تلك الأفعال »

ونظرت الفتاة البيضاء حولها . فوجدت عجوزا آتيا نحوها مصطحبا شابا يحمل حزمة من الحطب . وبيد الرجل سكين كبير قاطع ولما اقتربا من الكومة الصخرية أخذ الرجل بضعة أحجار وعمل منها فرنا . ووضع الحطب فوقها . وفجأة انقض الرجل على ولده فأوثقه وأنامه على الحطب فسألته الفتاة

« ماذا أنت صانع ؟ » قال « أنى سأضحى ولدى الأوحد إسحق » قال الرجل هذا ورفع السكين ليقطع بها حلقوم ابنه . حينئذ قال الله

« ابراهيم . . ابراهيم » فأجابه « ها أنذا » قال « لا تقرب يديك من الشاب . لا تفعل به شيئا إنى أعلم أنك تعنى بى أكثر من عنايتك بولدك ولكنى لا أرغب فى التضحية البشرية ، أنى أمنعها فاذا أردت أن تضحى فضحى على الكبش المسوك من قرنيه فى الغابة »

وبعد أن ذهب ابراهيم وإسحق قال الله

« الآن سيعلمون أنى أرغب عن الأتيان بأولادهم وذبحهم كضحية أمامى . ولقد ظن إبراهيم أنى اردته أن يضحى ابنه . والآن عرف أنى لا أريد ذلك . ولما يتلقنوا هذا الدرس جيداً سأعلمهم أن ليست لى لذة فى تضحية الحيوان وأنى أحب الرحمة وان أقصى ما يقدمونه لى إنما هو حياة الطاعة والأيمان والحب »

وعلى الأثر قالت الفتاة للكاتب « حسنا لقد كنت مخطئا فى زعمك فيه على أى الحالات » والآن فان الكاتب الذى طالما علمها ، كان قد أخبرها أن تقطع الصفحات الأولى من الكتاب المقدس وترميها فى مهب الريح . وقد قطعتها فعلا ولكنها حفظتها معها . والآن فتحت الكتاب ووضعت الصحائف فى مكانها وقرأتها وكأنها قد فهمت معناها أحسن من ذى قبل !

« ٢ »

وهنا وعدها الكاتب أن يريها إلها ما كراً عجوزا يود لو يناقشها ، وستظن فيه حقا أنه أبله . فقادها إلى مكان فسيح فى الغابة حيث جلس الاله . فدهشت لما لاحظت الشبه القوى بينه وبين الاله السابق ولما اقتربت منه وجدته هو هو الاله نفسه . ولا تزال النظرة المكتئبة والرفق تبدوان على محياه ، وتمكنت من رؤية لمحة لابتسامة بهجة فى عينيه ، لم تكن قد لحظتها لما رأته على ربوة الصخور فسألته « لم لاتزال محزونا ألا يزال عبيدك يقتلون أولادهم فى سبيل مرضاتك ؟ » فأجابها « كلا فقد عرفوا هذا الدرس ولكنهم لا يزالون ، يفسد كل حياة أخيه ، بل وحياته بالأغلاط التى يغلطونها . وسأعلمهم درسا آخر سيساعدهم » فسألته « كيف ؟ » فأجاب

« بالطريقة التى تعلمين بها الأطفال . سأقص عليهم قصة لأن عبيدى لم ينضجوا بعد ، وهم يفهمون القصة أكثر من فهمهم لمقال نظرى . وسأفعل كصديقك هناك الذى كتب قصة فى ثمان وخمسين صحيفة ، ثم أشار إلى غرضه منها فى ست عشرة صحيفة طبعها فى آخر الكتاب . ولو أنه فى بعض الأحيان يكتب مسرحية فى ثلاثين صحيفة

ويلحقها بمقال ذى خمس وسبعين صحيفة كمقدمة . ولما قال هذا ابتسم للكاتب الذى وقف بالقرب ، فى مظهر المتكبر . فلما رأى الكاتب الاله يضحك عليه ، اتخذ وقفته المحبوبة ، وأخذ يتكلم بسرعة وبطريقة مسلية وماهرة جدا للفتاة البيضاء ، فداعبته بضربة من عصاها قائلة أن يهدأ ، إذ كانت تود الأصغاء الى الله . فصاح فى حالة تدعو الى الأشفاق ناسيا أنه متغطرس ، « أأنا الذى أهدأ ؟ أأنا أهدأ حين تصغين إلى هذا الآله القديم المتكلم ، الذى يجيد المناقشة . أنا أريد أن أناقش وأشرح . إن أظفارى لكبيرة فى مسائل الشرح إنى ... »

وكانت الضربة التى تلقاها هذه المرة أنفع جدا من الأولى ، بيد أنها لم تتمالك من الضحك حين رأت الدهشة تعلو وجهه ، لما عرف أنها تريد أن تصغى لله بدلا منه . وظل الى وقت ما واقفا على رأسه يجهد نفسه فى الأتيان بأعمال تستلفت نظرها . ولكنها كانت متلذذة حقا إلى مايقول الله . ولم تسمع نكاته ولا تعليقاته فى بعض المناسبات وسألت الله «ما هى القصة التى ستقولها للناس ؟ » فقال الله «هى حول رجل يدعى جوب فان عبيدى يعتقدون أنه إذا حل شر كبير برجل فانما يكون سببه أن الرجل فاسد القلب وأنى غضبان عليه . وهذا كله خطأ وهذا يجعلهم قساة على المنكوبين أنفسهم ، وبائسين جدا حين

يلم بهم الخطب أنفسهم . ففى قصتى سيكون چوب رجلا طيبا جدا ، وسيلحق به كل مكروه ظاهر ، وليست أقل اضطراباته ما سوف يناقش فيه من هذه الأمور الثلاثة : —

الأول أنى أعاقب ضعفاء النفوس بالخطوب . والثانى أن ليس المصابون بالضعفاء . وأخيرا أنه مادام جوب مصابا فليس إذن فاسد النفس . فسأظهر أن جوب Job ليس فاسد الخلق . والذين سيصغون إلى القصة سيعلمون أنه فى حين أن ضعف النفس لا يكون سببا فى الخطوب ، فانه لا تحل الخطوب دائما لأن صاحبها ضعيف النفس .

سيعرفون إذن أن يكونوا اكثر رحمة بالمصابين الذين يقاسون وأشجع حين يعاونون هم أنفسهم . إنها نوع من القصة يمكن لصاحبك — الذى يفعل كالبهلوانات — أن يكتب مثلها جيدا » فقالت الفتاة البيضاء « ولكنك لم تشرح لماذا توجد المعاناة فى الدنيا على الأطلاق ؟ »

قال الإله « لا . إنك لا تستطيعين شرح نظرية إينشتين فى النسبية للاطفال ، ولا للصبية ، حتى ولا للاولاد البالغين العقد السادس . تستطيعين فقط ان تعليمهم الدروس التى يقدرون عليها . إنه كاف جداً فى هذا الوقت هذا الدرس . ان استطاع عبيدى ان يفهموا الدرس الذى القيه عليهم فى هذه القصه . وعليه يحفظون درسا واحدا فى

وقت واحد (كل مرة درس) . والأجابة على سؤالك خارجة عن مداركهم . كما أن الاجابة التامه خارجة عن ادراكك فى الوقت الحاضر وحتى عن إدراك صديقك المتناقض . ولكن استمرى فى التفكير فيها وبحثها ، وفى يوم ما سيوضح لك ما كنت ترينه خلال منظار قاتم »

ولما سمع الكاتب ان هناك أشياء خارجة عن حدود إدراكه دهش جدا حتى أنه أبطل الكلام . واعتدل فى وقفته — أي وقف على رجليه — وابتدأ فى الابتعاد ! ولحقته الفتاة وهى تفكر . ثم فتحت الكتاب المقدس وأرجعت ثلاثين صفحة أخرى الى مكانها كان قد طلب اليها الكاتب أن تقطعها وترميها جانبا . ثم قالت

« انى لا اعتقد ان الاله هو الشخص الأبله » فقال الكاتب

« ألست متسرعة فى حكمك هذا ؟ هذه الأفكار كلها قديمة . وشابة حديثة مثلك يجب أن يكون لديها الاستعداد لتمحيص النظريات الحديثة . وستجدين فى الأفكار الحديثة أشياء أنفع من القديم بكثير وهذه نبوة رزينة قديمة تقول بعدم التفريط فى الماء القذر حتى يتاح لنا الماء النقى . وهى نبوة خطرة إن لم تلاحظى أنه مادام ليس لديك الماء النقى فلا تلقى بالقذر . وتحذرين بدقة أن لا تدعى الماءين يمتزجان » فقالت الفتاة « إنى لا اعتقد أن الماء قذر . وعلاوة على ذلك فهناك مثلى

آخر يقول إنه من الخطأ إلقاء الطفل مع ماء حمومه . ومع ذلك فانا لاتتكلم عن الماء ، إنا نتكلم عن الحقيقة . والحقيقة لا تتعفن مع اننا يجب أن نعلم عنها كثيرا . فاثنين زائدا اثنين يساويان أربعة . سواء جمعهما نيوتن أو سير جيمس جانز . والجسم المغمور فى الماء يعانى ضغطا أعلى يساوى وزن الماء الذى حل محله الجسم . سواء غطس أرشميدس فى حمامه أو برنارد شو قد سبح فى البحر الابيض المتوسط ؟ » (وكانت جد فخورة لتذكرها الطبيعة التى حفظتها فى المدرسة)

قال الكاتب « هذا حسن .. هذا حسن تعال معى فسأريك نابها ذوى نظريات حديثه » . وقبل أن يقطعوا ميلا أبعد ، قابلا مؤلفا يحمل كرة هائلة على كتفيه . فلما اقترب منهم عرفوا أنها شبيهة بالكرات التى تستعمل أحيانا فى غرف التدريس وتسمى كرات ارضية . وصاح به الكاتب .

« هللو ألديوس Aldious ما ذا تحمل هناك ؟ » فأجاب المؤلف - « إنها الدنيا الجديدة الشجاعة » . فاقتربت الفتاة من المؤلف وأسندت تدقق فى الكرة . ورأت تماثيلا صغيرة كعدة الساعة ترحف فوقها ، ومنهمكة فى أعمال ليست مسلية . ولما همت أن تسال المؤلف

لم تأت تلك التماثيل بهذه الأعمال الشائنة ، لاحظت مؤلفا ثانيا يقترب حاملا فوق كتفيه عددا من العوالم الجديدة كل منها تختلف عن الأخرى وسمعت أيضا ضوضاء غريبة كأنها صادرة من رأسه فسألت « ما هذه الضوضاء الغريبه ؟ » فأجاب الكاتب « أنه صوت مستر ويلز يغير رأيه . ألم يقل سير جيمس بارى الذى يسكن بجواره فى حى أدلفى بأن الحيطان كانت رقيقة إلى حد أنه كان يسمع - كل ليلة - المستر ويلز يغير رأيه . وكلما غير رأية مرة أتانا بدنيا جديدة ؟ »

وظهر مؤلف آخر يحمل بيتا كبيرا على ظهره . فسألت الفتاة « ما هذا المنزل ؟ » فأجابها المؤلف « إنه يسمى منزل الاخلاق الجديدة أدحلى وتفرجى عليه » فجابت الفتاة فى المنزل تنظر النوافذ والأبواب فاستطاعت أن ترى مطبخا كبيرا فيه بوفيه للكوكتيل ، وحجرة نوم ضئيلة جدا جدا ، فيها ولد لا يدل مظهره على سعادة فلما تطلعت اليه من النافذة حملق فيها لحظات ثم قال « هالو . ايتها الفتاة الكبيرة أأنت أمى الجديدة » فأجابته « لا . لم تسأل عن هذا أماتت أمك ؟ » فاجاب « كلا . ولكنها ذهبت . واخبرنى آرثر ان أمى الجديدة ستأتى اليوم » .

— من هو آرثر ؟ أهو أبيك ؟

— كلا إنه ليس ابى . إنه الرجل الذى يعيش معنا اخيراً

— وهل مات أبوك إذا ؟

— لا اعلم (وبدأ يصيح) ترين أنهم يتغيرون دائما منذ بدأت اذكر ، لدرجة انى لا أعلم من هو . وهل لى أب أو لا ؟

وقال المؤلف الذى كان واقفا بجوارها « ستلاحظين ان الدنيا حرية جديدة فى الأخلاق الجديدة ! فان النظريات العائلية القديمة بقيودها ورجعيتها كانت تعتمد على اخلاق العبودية ، التى اقتلعناها الآن وكانت جميعها لا تليق بالناس العقلاء المتعلمين . فانه ليس من العدل للزوج او الزوجة ، ان يبقى كل منهما للاخر مدى حياتهما . لقد غيرنا هذا كلية »

فأصرت الفتاة ترد عليه « وليس كذلك من الأنصاف للاولاد التعسى الحظ ان يمتهن الزواج فيصبح كالبوستة العمومية » ومن ثم بدأت تصغى الى المحادثة التى تجرى فى حجرة الرقص . ولكن بعد دقائق قليلة تحولت وأسرعت الى الخارج وقالت « يخيل إلى ان الاخلاق الجديدة ما هى الا الرذائل القديمة » .

وأتى عدد كبيراً من المؤلفين يحملون عوالم جديدة شجاعة ، أو بيوتا للأخلاق الفاضلة الجديدة . وكانوا يتشاجرون ويتناقشون مع

بعضهم البعض فاحدثوا جلبة وضوضاء كثيرة حتى عزمت على أنها لن تجد دنيا جديدة او اخلاقا جديدة او الها يساعدها بينهم . فقالت « إنى لست راضية عن فكركم الجديد يا اصدقائى ، فان دنياكم الجديدة الشجاعة تظهر لى عوالم فزعة جديدة . وبيوت اخلاقكم الجديدة ليست بالبيوت التى أعنى بان أندمج فى مجتمعها » فقال الكاتب

« حسنا لا شأن لنا بهذا . ساريك الآن حاو هو رجل محبوب وزينته خسنة ولسوء الحظ قد حوله فساد الناس مجنونا »

فأتوا سريعا الى جب حيث وقفت لتشرب وفجاة رأت رجلا لم تكن قد لاحظته قبل ان تجلس بجوار الجب . وحين بدأت تغرف قليلا من الماء بيدها قال « هذا الماء الذى ستشربين منه سينعش جسمك الظمآن . ولكنك ستظمأين ثانية . والماء الذى اعطيه ينعش الروح وهؤلاء الذين يشربونه يطفأ ظمؤهم الروحى » فقالت

« هذا ما أريد لأن روحى متعطشة إلى معرفة الله الذى أبحث عنه أأنت الحاوى الذى أخبرت عنه ؟ »

« لست حاويا فأنى . لما أرسلت لأهدى الناس إلى الله ، كان على أن أختار طريقتى . فكنت أستطيع أن أحملهم على فعل ما أخبرتهم به بأن أحول لهم الحجر إلى خبز ! ولكن إن كنت فعلت لأصبحت

فى نظرهم الممون العالمى لا الصديق المنقذ . أو لـكنت أتيت بالمعجزات المدهشة كأن أسبح خلال إحدى ممرات معبدهم الضيقة إلى فنائهم المزدحم دون أن يلحقنى ضرر . ولـكنت أدهشتهم بقوى المعجزات الى حد أن أجعلهم يتبعوننى وهم مغمضين . ولـكن إذا كنت فعلا فعلت هذا ، لـكنت فى نظرهم أكبر حاوى فى العالم لا الصديق المنقذ . أو كنت حكمت بمالك هذه الدنيا ، وبمهارة قوادى،وقوة جيوشى كنت اضطرهم إلى طاعتى طاعة عمياء . ولـكنى إن كنت فعلت كنت فى نظرهم أكبر قائد حربى فى العالم لا الصديق المنقذ . بدلا من هذا عزمت ان احيا حياة الله بينهم : احيا حياة واحد يخدم الآخرين لأنه يحبهم ، ويحبهم لأنه يحب الله » فقالت الفتاة البيضاء

« إنى ابحث عن الله . ابن هو ؟ » فقال

« هو فى روحك ، وفى صميم صديقك هناك ، وفى صميمى انا ايضا » فقالت

« إنى اعتقد هذا ولـكن من هو ؟ » قال

« هو أبونا » فقالت

« إنى لا احب ابى . لقد كان مشغولا فقط بعمله وبلعبة الجولف ولم يعن بى قط حتى عرف انى اجيد لعب الجولف لدرجة ان اغلبه .

وحتى وقتذاك أرادنى ان أتزوج شريكه فى العمل الذى كان رجلا عجوزا قبيحا كابى . لا . إنى لا احب أبى فلم يكن ابا حقا »

فأجابها « إذا لم يكن ابا حقا فهو لم يكن كالله مطلقا ، فان كان احسن أبوة ، فهو اقرب شبها بالله . وإن كان ابا كفؤا فهو تماما كالله والله هو أبونا الحق الكامل . وعملية الصلاة له كعملية سير الأطفال إلى أبيهم . فحين تصلين قولى « أبانا » وحين تخافين تذكرى ان الله (اباك) يعنى بك . وحين تطمعين فاعلى ان اباك يعلم . وحين تخطئين فأنت تبتعدين عن ابيك إلى بلد بعيد . ولكنه طوال الوقت الذى أنت فيه فى هذا البلد النائى ، فان اباك ينتظرك لترجعى ويقابلك قبولا حسنا . وستكونين اجدر بان تسمى ابنته . فسيرحب بعودتك وستجدين انه لا يزال أبيك . نحن هنا فى الحياة لننفذ إرادة الله . وكما قال أحد اتباعى « فى إرادته سلامتنا » ففى الحياة يجب ان نعنى بشئون الله . وحين نموت سنسلم ارواحنا بين يديه . وستجدين ان القبر انما هو الباب الي بيت أبينا حيث يوجد كثير من الأبنية الضخمة » فقالت الفتاة البيضاء

« إنى لم افكر فى الله بمثل هذا قط . لقد كنت اظنه دائما كنوع من البوليس الغضبان . يراقبنى ويود لو يقبض على متلبسة بالخطأ

كى أعاقب . أليس الله يراقبنى دائما ؟ » فأجابها

« نعم . الله دائما يرعاك . كالأب المغرم بك الى حد الا يتحول بعينيه عنك أبدا . فالله أبوك الكامل التام ! وهو الحب ! ومادام هو الحب ، ونحن أولاده فيجب على كل منا ان يحب الآخر » فقالت

« انى لا اريد ان أحب جميع الناس . بعض الناس مخيفون يسرقون ويغشون وينشلون ويؤذون الناس . فيجب قتلهم ومحوهم كالحشرات الضارة » فاجابها « كلا . لا يجب سحقهم ولكن يجب علينا ان نغيرهم . والطريقة المثلى لتغييرهم هى ان نحبهم » فسألت

« أتحب كل الناس ؟ » قال « نعم أحبهم لدرجة انى أموت من أجلهم » قالت

« وهل يحبونك ؟ » قال

« بعضهم . والبعض الآخر يود لو يقتلنى » قالت

« وهل تقتلهم ؟ » قال « لا . ولم اقتلهم ؟ إنهم لا يعرفون ما ذا هم فاعلون انى احبهم واستمر فى حبهم » قالت

« وهل هذا تشبها بالأله ؟ » قال « نعم الله هو الحب ! والحب يعطى ويعطى ويستمر فى بذل العطاء » فاشتبك الكاتب معهم فى المناقشة قائلا :

« لا . الحب ياخذ ويأخذ ويظل فى أخذه . لما تحب امرأة رجلا أحبته حب اللبؤة وأكلته ، وجعلته قطعة منها . ومن هذا الوقت فليس عليه ان يفكر فيما يسره ولكن فيما يسرها ! فهى تقف بينه وبين نفسه وبينه وبين الله فالحب شيء شره »

فسألته الفتاة البيضاء « وهل تأكل اللبؤة بعلها ؟ » فأجاب الكاتب « لا عليك بهذا فهو تشبيه فقط . المهم عندى ان الحب شيء يأخذ ويبلع ويستولى . وهو ظلم فادح . هل تتصورين الجنة هى الحب . ؟ » فأجابه الذى سماه حاو « الحب هو الجنة والسعادة الأبدية ؟ ولكن ليس ما تسميه انت بالحب والشيء الذى ياخذ هو الشهوة الشرهة . والحب يعطى ولا يأخذ وهو يعنى الخدمة والبذل ، والحب يعطى والله يعطى ، والله يحب حتى يعطى . ولهذا اعيش عيشة الخدمة ، واضحى حياتى فى سبيل اصدقائى لأريهم ماذا يشبه الله . وأحزن للصداقة المهضومة بينهم وبين الله . احب لا اشتهى ، اعطى لا آخذ ، اخدم ولا اخدم . هذه هى السعادة وهى الحياة وهى الآخرة الأبدية » ولما كان يتكلم كانت الفتاة البيضاء تحملق فيه بانتباه . وذكرتها تقاطيع وجهه وما ارتسم عليه من التعبير بالألم الذى رأته على كومة الحجارة الذى اخبرها اخيرا بحكاية چوب ولكن الآن — والنظرة الحزينة والعطف باديان —

اختلط بها نظرة سعيدة رحبة أخذت بلبها ونظرت الى كتابها المقدس الذى وقع مفتوحا على الحائط بجوارها وقرأت

(هذا الذى رآنى قد رأى الآب) . فالتفتت الى الكاتب وقالت « جئنا لنبحث عن الله وقد وجدناه وكل ما أرغب هو أن أتبعه »

واستمرت تمشى مطرقة مكلومة خلال الغابة . فقد تعلمت من الرجل قرب البئر ماهو الله ، وتعلمت ايضا ماذا يجب ان تكون عليه الحياة الأنسانية والحب . وعلمت ان حياتها مخالفة تماما لحياة هذا الرجل . وكانت جد مقتنعة حين بدأت رحلتها . ولكن منذ وقفتها مع الرجل بجوار البئر عرفت أن حياتها ماكانت إلا حيدا عن الصواب واعتقدت أن ما تشعر به الآن كان ما سماه الرجال القدماء « اقتناع بالخطأ » ، ولعلهم كانوا يقولون ان « الروح المقدس كان يقنعها ويدافع عن نفسه » ومن ثم حملت على الاقتناع بأنهم كانوا على الصواب

